توفيق الحكيم

حماري قال لي

[طبع للمرة الأولى سنة ١٩٤٥]

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

كتب للمؤلف نشرت باللغة العربية

١ ــ محمد ﷺ (سيرة حوارية)	١٩٣٦
٢ ــ عودة الروح (رواية)	١٩٣٣
٣ ــ أهل الكهف (مسرحية)	١٩٣٣
٤ ــ شهرزاد (مسرحية)	١٩٣٤
٥ ــ يوميات نائب فى الأرياف (رواية)	١٩٣٧
٦ ــ عصفور من الشرق (زواية)	١٩٣٨
٧ ــ تحت شمس الفكر (مقالات)	١٩٣٨
٨ ــ أشعب (رواية)	١٩٣٨
٩ ــ عهد الشيطان (قصص فلسفية)	١٩٣٨
١٠ ــ حمارى قال لى (مقالات)	١٩٣٨
١١ ــ براكسا أو مشكلة الحكم (مسرحية)	١٩٣٩
١٢ ــ راقصة المعبد (روايات قصيرة)	١٩٣٩
١٣ ــ نشيد الأنشاد (كما فى التوراة)	١٩٤٠
١٤ ــ حمار الحكيم (رواية)	١٩٤٠
١٥ ــ سلطان الظلام (قصص سياسية)	١٩٤١
١٦ ــ من البرج العاجى (مقالات قصيرة)	١٩٤١
١٧ ــ تحت المصباح الأخضر (مقالات)	١٩٤٢
١٨ ــ بجماليون (مسرحية)	١٩٤٢
١٩ ــ سليمان الحكيم (مسرحية)	١٩٤٣
٢٠ ــ زهرة العمر (سيرة ذاتية ــ رسائل)	١٩٤٣
٢١ ــ الرباط المقدس (رواية)	١٩٤٤

كتب المؤلف نشرت فى لغة أجنبية

شهر زاد : ترجم ونشر فى باريس عام ١٩٣٦ بمقدمة لجورج لكونت عضو الأكاديمية الفرنسية فى دار نشر (نوفيل أديسيون لاتين) وترجم إلى الإنجليزية فى دار النشر (بيلوت) بلندن ثم فى دار النشر (كروان) بنيويورك فى عام ١٩٤٥ . وبأمريكا دار نشر (ثرى كنتيننتزا بريس) واشنطن ١٩٨١ .

عودة الروح : ترجم ونشر بالروسية فى لينتجراد عام ١٩٢٥ وبالفرنسية فى باريس عام ١٩٣٧ فى دار (فاسكيل) للنشر وبالإنجليزية فى واشنطن ١٩٨٤ .

يوميات نائب فى الأرياف : ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٣٩ (طبعة أولى) وفى عام ١٩٤٢ (طبعة ثانية) وفى عام ١٩٧٤ و١٩٧٨ (طبعة ثالثة ورابعة وخامسة بدار بلون بباريس) وترجم ونشر بالعبرية عام ١٩٤٥ وترجم ونشر باللغة الإنجليزية فى دار (هارفيل) للنشر بلندن عام ١٩٤٧ — ترجمة أبا إيبان — ترجم إلى الأسبانية فى مدريد عام ١٩٤٨ وترجم ونشر فى السويد عام ١٩٥٥ ، وترجم ونشر بالألمانية عام ١٩٦١ وبالرومانية عام ١٩٦٢ وبالروسية عام ١٩٦١ .

أهل الكهف : ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٤٠ بتمهيد تاريخى لجاستون فييت الأستاذ بالكوليج دى فرانس ثم ترجم إلى الإيطالية بروما عام ١٩٤٥ وبميلانو عام ١٩٦٢ وبالأسبانية فى مدريد عام ١٩٤٦ .

عصفور من الشرق : ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٤٦ طبعة أولى ،

ونشر طبعة ثانية فى باريس عام ١٩٦٠ .

عدالة وفن : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس بعنوان (مذكرات قضائى شاعر) عام ١٩٦١ .

بجماليون : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ .

الملك أوديب : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ ، وبالإنجليزيـــة فى أمريكـــا بدار نشر (ثرى كنتننتـــزا بريس) بواشنطن ١٩٨١ .

سليمان الحكيم : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ وبالإنجليزية فى أمريكا بدار نشر (كنتننتزا بريس) بواشنطن ١٩٨١ .

نهر الجنون : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ .

عرف كيف يموت : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ .

المخرج : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠

بيت النمل : ترجـــم ونشر بالفرنسيـــة فى باريس عام ١٩٥٠ . وبالإيطالية فى روما عام ١٩٦٢ .

الزمار : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ .

براكسا أو مشكلة الحكـم : ترجـم ونشر بالفرنسيـة فى باريس عام ١٩٥٠ .

السياسة والسلام : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ . وبالإنجليزيـــة فى أمريكـــا بدار نشر (ثرى كنتننتـــز بريس) بواشنطن ١٩٨١ .

شمس النهار : ترجم ونشر بالإنجليزية فى أمريكا (ثرى كنتننتز) واشنطن عام ١٩٨١ .

صلاة الملائكة : ترجم ونشر بالإنجليزية فى أمريكا (ثرى كنتننتز) واشنطن عام ١٩٨١ .

الطعام لكل فم : ترجم ونشر بالإنجليزية فى أمريكا (ثرى كنتننتز) واشنطن عام ١٩٨١ .

الأيدى الناعمة : ترجم ونشر بالإنجليزية فى أمريكا (ثرى كنتننتز) واشنطن عام ١٩٨١ .

شاعر على القمر : ترجم ونشر بالإنجليزية فى أمريكا (ثرى كنتننتز) واشنطن ١٩٨١ .

الورطة : ترجم ونشر بالإنجليزية فى أمريكا (ثرى كنتننتز) واشنطن عام ١٩٨١ .

الشيطان فى خطر : ترجم بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ .

بين يوم وليلة : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ وبالأسبانية فى مدريد عام ١٩٦٣ .

العش الهادئ : ترجم بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤ .

أريد أن أقتل : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤ .

الساحرة : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٣ .

دقت الساعة : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤ .

أنشودة الموت : ترجم ونشر بالإنجليزية فى لندن هاينهان عام ١٩٧٣ وبالأسبانية فى مدريد عام ١٩٥٣ .

لو عرف الشباب : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤ .

الكنز : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤ .

رحلة إلى الغد : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٦٠ . وبالإنجليزية فى أمريكا بدار نشر (ثرى كنتننتز بريس) بواشنطن عام ١٩٨١ .

الموت والحب : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٦٠ .

السلطان الحائر : ترجم ونشر بالإنجليزية لندن هاينهان عام ١٩٧٣

وبالإيطالية فى روما عام ١٩٦٤ .

يا طالع الشجرة : ترجمة دنيس جونسون دافيز ونشر بالإنجليزية فى لندن عام ١٩٦٦ فى دار نشر أكسفورد يونيفرستى بريس (الترجمات الفرنسية عن دار نشر « نوفيل إيديسيون لاتين » بباريس) .

مصير صرصار : ترجمة دنيس جونسون دافيز عام ١٩٧٣ .

مع : كل شىء فى مكانه .

السلطان الحائر .

نشيد الموت .

لنفس المترجم عن دار نشر هاينمان — لندن .

الشهيد : ترجمة داود بشاى (بالإنجليزية) جمع محمود المنزلاوى تحت عنوان « أدبنا اليوم » مطبوعات الجامعة الأمريكية بالقاهرة — ١٩٦٨ .

محمد ﷺ ترجمة د . إبراهيم الموجى ١٩٦٤ (بالإنجليزية) نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية . طبعة ثانية مكتبة الآداب ١٩٨٣ .

المرأة التى غلبت الشيطان : ترجمة تويليت إلى الألمانية عام ١٩٧٦ ونشر روتن ولوننج ببرلين .

عودة الوعى : ترجمة إنجليزية عام ١٩٧٩ لبيلى ويندر ونشر دار ماكملان — لندن .

روى عن النبى أنه قال :

« إنى لأمزح ولا أقول إلا حقاً »

عن أبى هريرة

من هو « حمارى »

الحمار له فى حياتى شأن ... إنه عندى كائن مقدس كما كان الجعران عند المصريين القدماء ... لقد عرفته منذ صغرى فى صورة جحش جميل اشتراه لى أهلى بثلاثين قرشاً ، وجعلوه لنزهتى فى الريف ... وكانت له برذعة صغيرة حمراء لا أنساها ... وكنا خير رفيقين ... لا نفترق إلا للنوم ... لقد كان فى مثل سنى ... أى فى طور الطفولة من فصيلته ، كما كنت أنا فى طور الطفولة فى جنسى .

على هذه الحال من المودة عشنا حتى فرقت بيننا الأيام ، فذهبت أنا إلى مدارس الحضر ، وبقى هو فى ريفه ... وعدت فى الصيف بعد أعوام ؛ فوجدت الحياة قد تنكرت له ؛ فالبرذعة الحمراء قد نزعت من فوق ظهره ، وألقى بها فى مكان مهجور ، ووضع مكانها « غبيط » يحمل فيه التراب والسماد والطين ... فدنوت منه ، ومسحت رأسه المعفر بكفى ، فنظر إلىّ نظرة حزينة ، وكأنه يقول لى :

— « أرأيت ؟ ... لقد ذهبت الطفولة وولت أيام الهناء ؟ »

وحزّت تلك النظرة فى قلبى ، ونظرت إلى من حولى قائلا :

— « أما كنتم تستطيعون أن تجنبوه هذا العمل الشاق المهين ... وتجعلوه على الأقل للركوب ! ... »

وكأنه فهم عنى ، فقد رفع رأسه نحوى ، وكأنه يقول :

— « لا فائدة ! ... لا تجهد نفسك معهم ... ما من أحد غيرك يعرف

لى قدراً !... » ولم تستطع شفاعتى أن تغير شيئاً مما كتب عليه ... فتركته لمصيره ... ثم بلغت مرحلة الشباب ، وفرغت من الدرس ، واشتغلت بتأليف الروايات التمثيلية ... فلم يفتنى أن أجعل من الحمار شخصية فى رواية لى ؛ فظهر على المسرح ولم أره للأسف ، فقد كنت غادرت مصر وذهبت إلى أوربا فجاءتنى الأخبار بأن الحمار أدى واجبه على أكمل وجه ، وقام بدوره فى الرواية على نحو يستحق الإعجاب ... ولكنه نظر بعد ذلك إلى جمهور المشاهدين نظرة عميقة ؛ ثم فعل فعلة غير لائقة لوثت خشبة المسرح ... وخرج بين سخط الممثلين وهرج النظار والمتفرجين ... وقد بلغنى أنه ضُرب عندئذ وطرد وأهين ، ولو كنت أنا حاضراً لدافعت عن ذلك المسكين .

وأغلب ظنى أنه أدرك بغريزته أن الجمهور لم يفهم الرواية ... فناب عنى فى إظهار احتقاره له بالطريقة التى رآها مواتية .

ومضى نحو عشرين عاماً ، فرأيت الجحش مرة أخرى فى شوارع القاهرة ، واشتريته بثلاثين أو خمسين قرشاً مرة أخرى ولكن هيهات ... لقد كان هو فى طفولته وأنا فى كهولتى ... فلم يكن بيننا غير صمت طويل انتهى بموته ... أتراه أدرك بسليقته أن أوان اللعب قد فات بالنسبة إلىّ !.. فآثر أن يتركنى سريعاً قبل أن أستكشف بنفسى هذه الحقيقة فأحزن ؟... لقد سميته « الفيلسوف » وقد علمنى أشياء كثيرة بمجرد صمته وارتفاعه عن لجج هذا البحر الخضم : بحر السخف الإنسانى !...

ثم رأيت الحمار بعد ذلك فى الريف أثناء زيارة قصيرة فى أحد الأعياد ... ذهبت للراحة بضعة أيام ... وقد خطر لى أن أصطاد السمك فى جدول غير بعيد — فسرت على أقدامى مع بعض الفلاحين يحملون لى

عصا الصيد ، وساء تقديرى لقوة احتمالى للسير ... فقد شعرت بالجهد والتعب بعد مائة خطوة ... و لم يجدوا لى حيلة غير وضعى على صهوة حمار من حمير التراب كان يعمل فى حقل قريب ... و لم أر والله فى حياتى أتعس ولا أشقى من ذلك الحمار ... كان الدم يقطر من ظهره ؛ لثقل « الغبيط » وهزال جسمه ، وبروز عظمه ... ولا أحد يرحم ... وكان يتضور من الجوع ويمد بوزه إلى كل عود أخضر يجده فى الطريق فلا يلقى غير اللكم ممن يقودونه ، ولا يظفر بغير اللطم ... لقد كان ذلك الحمار ملكا لبعض المستأجرين الفقراء من الفلاحين ، الذين لا يملكون للحمير قوتاً ... ولا يدخرون ما عندهم من « العليق » إلا للجاموسة والبقرة التى تدر اللبن ... أما الحمار فهو فى نظرهم لا يساوى أكله ... وهو يُذكر عند المهمة العنيفة والعمل الشاق ... ولكنه ينسى عند حلول الأكلة النظيفة ؛ فعلى المسكين إذن أن يلتقط ما يصادف فى طريقه من عشب مهمل أو ورق زرع متروك ... وليتهم مع ذلك يدعونه يفعل ، فهم يدفعونه فى ظهره بالعصا كلما تباطأ قليلا لالتقاط رزقه من الأرض بحجة أنه يتلكأ ويتلاكع ويتكاسل عن عمله المفروض — أما إذا حدثته نفسه اللعينة ؛ فمال برقبته على حقل للأذرة ، وفقد رشده وخرج عن وعيه ، وهبر بأسنانه عوداً منها أو كوزاً دانياً ؛ فهى الطامة التى لا تدانيها طامة ... فإن الصياح يعلو من كل جانب ويهرع أصحاب الزراعة بالمراوات ينهالون بها على المسكين وهم يتصايحون : « حوشوا الحمار نزل غيط الذرة !... » .

ذلك هو الحمار الذى امتطيته ذلك العصر ... وقد وجدت مشيته أبطأ من مشيتى ... ولكن فهمت السبب ؛ فتركته يسير كما يشاء ،

ويلتقط ما شاء ... ونهرت كل من أراد بالضرب حثه على الركض ، بل لقد فعلت أكثر من ذلك ؛ لقد تركته — وقد شعر ولا شك بتسامح راكبه — يمد فمه إلى كوز ذرة دنا من طريقه ... وشرع الفلاحون فى الصياح فأسكتهم فى الحال بقولى :

— « اتركوه !... اتركوه !... » .

فسكتوا مرغمين ... أما هو فقد طحن الكوز بأسنانه طحناً سمع له خشخشة وبلع ؛ فكان لحركة البلع فى حلقه معمعة ، وخيل إلىّ أنى أرى الطعام يحدث عنده لذة لم يحسها المسكين منذ أمد طويل ... وسار بعد ذلك وكأن كل خطوة من خطواته تسبيحة حمد وشكر ... إلى أن بلغنا الجدول المقصود ، فترجلت ، وأخذنا فى الصيد ، وأوصيتهم أن يتركوا الحمار يرعى الكلأ النابت على حافة الماء ... وشهد الله لقد كانت ساعة لم ينعم بمثلها ... والله إذا أعطى فإنه يعطى أحياناً بغير حساب ... فقد تهيأ لذلك الحمار السعيد وقتئذ الماء والخضرة ... فأظفره الله بالباقى : أى الوجه الحسن فى صورة حمارة شابة كانت ترعى هى الأخرى مع بعض خراف ونعاج على مقربة منه ... فما راعنى — وأنا مشغول بصيدى — إلا صوت من بين الفلاحين يصيح :

— « حوشوا الحمار والحمارة ... ! »

فالتفت فإذا المغازلة على أتمها بين الحبيبين ... فقلت :

— « اتركوهما !... » .

فتركوهما حتى انفصل أحدهما عن الآخر ...

وفرغت أنا من صيدى ، فركبت الحمار عائداً وهو يسركض بى كالمرح ، فقد أكل ، وشرب ، وتنزه ، وغازل ... إنها لحظة من الهناء قد

سرنى وأسعدنى أنى أتحتها له ... ولكن القدر قد جعله يدفع ثمنها غالياً ... فالمكتوب عليه الشقاء؛ ويجب أن يحاسب على كل فرحة تتسرب إليه خلسة من يد القدر النائم ... و لم تمض بالفعل أيام حتى سمعت أن ذلك الحمار قد نفق جوعاً ، وسقط إعياء وسط الحقل ، رازحاً تحت أثقال ما يحمل من تراب ... فألقى الفلاحون بجثته فى المصرف ... و لم يكلفوا أنفسهم حتى مؤونة دفنه ، وضنوا عليه حتى بذلك التراب الذى قضى حياته التعسة كلها فى حمله على ظهره ... فلما بلغنى ذلك أمرتهم أن ينتشلوا جثته من الماء فى الحال وأن يدفنوه ...

ولست أدرى حتى هذه اللحظة أفعلوا أم سخروا وكذبوا علىّ وتغافلوا عنه حتى جرفه التيار ...

***

من بين هذه الحمير الأربعة : أين حمارى الذى يحادثنى وأحادثه ؟!... إنه ليس واحداً بالذات من بينها ... إنه جميعها. إنه هو كلها مجتمعة فى واحد ، هو روح هذه الأربعة التى عرفت ، إنه النوع بفصائله ، والفصيلة بصفاتها ... إنه أى حمار ، رأيته أو لم أره ... مهما تكن ظروفه ومصائره ... أى حمار من تلك الحمير التى أعرف أو لا أعرف هو لى صديق ... أحبه وأحدب عليه ، وأفهم ما يجول فى خاطره ... وأنظر إلى عينيه وأصغى إليه ، فيخيل إلىّ أن صمته الطويل قد انفرج عن حديث مؤنس يدلى به إلىّ ، وأسئلة طريفة يلقيها علىّ ...

حمارى والطوفان !

جلس حمارى إلى جوارى كما اعتاد ، وقال :

ــ أخشى أن تثور كبرياؤك ذات يوم فتترفع عن مجالسة مثلى !...

قالها بنبرة أعرفها فى صوته ... إنه مخلوق يجيد نوعا من السخرية ليس من الهين أن يُلمح فى كل الأحيان ... لأنه مغلف فى طيات التواضع والتسليم والاذعان ، ولكنى أعرف فيه قوة المقاومة وصلابة المراس ، وشيئاً من الاعتداد بالذات ؛ لا يظهر إلا إذا وُخز وخزة تجرح نفسه ... لذلك ألجأ معه إلى المزاح فى القول والإغلاظ فى التهكم ؛ حتى أرغمه على مصارحتى بكل مشاعره ... فأجبته :

ــ وأنا أخشى أن يركبك الوهم ؛ فتحسب أن لافرق بينى وبينك !...

ــ لا تخف ... إن الوهم لا يركبنى أبداً ... لم يركبنى غير الواهمين !...

ــ من أمثالنا معشر البشر !... أليس هذا ما تعنى ؟...

ــ ما أردت أن أمس كرامتك ... إن بيننا وبينكم صلات ود من قديم ... لقد زاملناكم ، وركبنا معكم سفينة نوح فى عهد الطوفان ...

فأدركت غرضه الخفى من الإشارة إلى هذا المستند التاريخى ، وبادرت أقول :

— ليس هذا بدليل على الزمالة ... لقد ركبتْ معنا كل الحيوانات ، مما يؤكل ومما لا يؤكل ... من الأسد والفيل ، إلى الفأر والخنزير ... واقرأ تاريخ أبى الفداء تجد فليه أنه كانت للسفينة ثلاث طبقات : طبقة فيها الدواب والوحش ، وطبقة فيه الإنس،وطبقة فيها الطير ، ولقد فكرنا نحن الإنس فيك وخفنا على أمثالك من الدواب أن يفترسها الأسد ، فدعا نوح ربه فسلط على السبع الحمى ، فكانت أول حمى نزلت فى الأرض ... ثم شكوا الفأرة لإفسادها الطعام والمتاع ، فأوحى الله إلى الأسد فعطس ، فخرجت الهرة منه فتخبأت الفأرة منها ... وكثر أرواث مثلك من الدواب ، فأوحى الله إلى نوح أن اغمز ذنب الفيل ، فغمزه ، فوقع منه خنزير وخنزيرة ، فأقبلا على الروث ... إلى غير ذلك مما حدث فى السفينة وتدبرناه نحن معشر الإنس بفكرنا الناضج ، حيث لم نجد منكم معشر الحيوان والدواب غير المشاكل التى تقتضى الحل وتستوجب التدبير ... ولم نر منكم معونة ولا زمالة تهون علينا محرجات ذلك الموقف الخطير .

— لا تتكلم عن فصيلتى ... لقد كان لنا رأى فى السفينة والطوفان ... وما دمت تذكر التاريخ والمؤرخين ، فارجع إليهم ينبئوك أن آخر ما دخل السفينة من الحيوانات كان الحمار !...

— وما هو ، من فضلك ، رأيكم فى السفينة والطوفان ؟...

— لا تسألنى رأيى ؛ بل أجبنى أنت بفكرك الناضج : لماذا كان الطوفان وكانت السفينة !؟...

— لماذا ؟... للظلم والفساد اللذين كانا قد عما الأرض ... وللضلالة والطغيان ، وعبادة الأصنام والأوثان ...

— من أجل ذلك أغرق الله الأرض بما فيها من شرور وآثام ، وبمن عليها

من طغاة وأصنام ، إلا تلك النخبة الصالحة التى وضعت فى السفينة ، لتبدأ بعد ذلك حياة أخرى يسودها الخير ، وأجيالا جديدة يقودها الحق ...

— هو ذاك ؟...

— وهل ساد بعد ذلك الخير ، وانتصر الحق ؟!...

— ماذا تعنى ؟...

— لم يقل لك مؤرخوك : إن قوم عاد كانوا أول من عبد الأوثان بعد الطوفان ؟... كل شيء رجع فنبت من جديد ... بعد أن غيض الماء ... وبلعت الأرض ماءها ، ورجعت الحمامة إلى نوح وفى منقارها ورقة الزيتون وفى رجلها الطين ، واخضر وجه الأرض ونبت الزرع والضرع ، والخير والشر أقوى مما كان وأخصب ...

— نعم ... نبت الشر من جديد ... أتدرى لماذا ؟... لأن إبليس كان قد دخل السفينة مع من دخل ، ولم يغرقه الطوفان مع من أغرق ... أتدرى كيف تسلل إبليس إلى السفينة ؟...

— لا ... كيف تسلل ؟...

— يروى عن المؤرخ ابن عباس أن إبليس دخل متعلقاً بذنب الحمار !...

— أوَ كان ابن عباس هذا شاهد عيان ؟!...

— لست أدرى ... إنما أحدثك بما جاء فى بطون الكتب ...

— خير لك أن تحدثنى برأيك أنت فى نتيجة كل ذلك ؟...

— نتيجته أن نوحا خرج بعد ذلك إلى الأرض ، هو ومن معه من إنس ودواب ... وابتنى مذبحاً لله ، وأخذ من الطير والدواب الحلال ، فذبحها قرباناً إلى الله ، سائلا إياه أن لا يعيد الطوفان على أهل الأرض ... فعهد الله

إليه أن لا يعيده ، وجعل تذكاراً لميثاقه إليه القوس الذى فى الغمام ، وهو قوس قزح ، الذي قال ابن عباس : إنه أمان من الغرق ، وقال آخرون إنه قوس بلا وتر : أى أن هذا الغمام لا يوجد منه طوفان كأول مرة ...

ـــ الواقع أن الطوفان لم يحدث غير مرة ، بعد أن ثبتت قلة جدواه فى المرة الأولى !...

ـــ أنت تقصد ولا شك طوفان الماء ... هذا حقيقة ... لم يحدث غير مرة ... وقد وعد الله بأن لا يعيده ... ولكنه استعاض عنه بطوفان من نوع آخر يحدث فى كل جيل مرة أو أكثر ... ذلك طوفان الدماء !...

ـــ حتى طوفان الدماء ماذا صنع ؟... وماذا أجدى ؟... ألم تكن الحرب الكبرى الماضية طوفان دماء !...

ـــ طبعاً ...

ـــ لقد انتهت النازلة وختمت المجزرة ، وشربت الأرض دماءها وابتلعت آثامها ... وظن العالم أن أصنام القوة المادية قد حطمت ... وأوثان الطغيان قد هدمت ، وأن الحق وحده هو المسيطر ، وأن الخير هو المنتصر ... وأن الدول الصغيرة والدول الكبيرة سواء أمام سلطان الحق وحده ... وأن الشعوب القوية والشعوب الضعيفة متساوية أمام سيد واحد هو : النفع العام لبنى الإنسان دون أثرة أو نعرة ... ونهض الناس ينظرون فى كل أمة إلى قوس النصر وقبر الجندى المجهول ، كما نظروا إلى قوس قزح ... سائلين الله أن لا يعيد الحرب مرة أخرى ... فما الذى حدث ؟... أجبنى ... ما الذى حدث بعد ؟

ـــ حدث الذى حدث فى الطوفان الأول ؛ بلا زيادة ولا نقصان ... حدث أن تعلق إبليس بذيل ...

ـــ بذيل من ؟...

ـــ بذيل الرئيس ولسون !... صاحب المبادئ الأربعة عشر المشهورة ، التى كانت ستكفل للعالم سيادة الحق والعدل والخير والسلام .

ـــ إذن لقد خاب ذلك الطوفان هو الآخر ؟...

ـــ بالطبع ... وها نحن أولاء فى طوفان جديد ... لم تبتلع الأرض بعد دماءه ؛ بل لو ذهبت الحمامة لما وجدت ورقة زيتون تلتقطها ، ولا عشاً تأوى إليه ... فقد ضربت القنابل كل بناء ، وهدمت كل جدار ... ولكن الناس يحتملون كل ذلك صابرين ، وينظرون إلى الغد مستبشرين ، ويعللون أنفسهم بأن هذا آخر طوفان .

ـــ كما قالوا فى كل مرة ...

ـــ أظن أنه قد آن للبشرية أن تعقل ، وأن تبلغ رشدها ، وأن تتحرر نهائياً من طغيان الغرائز الدنيا ... وأن تكف عن تمزيق بعضها بعضاً ، وأن ترتفع إلى حيث تعمل متكاتفة لمصلحة الإنسانية كلها جمعاء ، دون ضغائن ولا سخائم ولا بغضاء ... ودون تمسك بغرور كاذب ، وعظمة زائفة ، وحب تسلط ، وشهوة سيطرة ...

ـــ قل بالاختصار : دون عبادة لأصنام الكبرياء الذاتى .

ـــ هو ذاك .

ـــ اسمح لى أن أقول : إن هذا شىء عسير على الإنسان ... لا بد للإنسان من عبادة الأصنام ... لم يستطع طوفان الماء ، ولا طوفان الدماء ، أن يغرق الأصنام التى يصنعها الإنسان لنفسه !... إن الإنسان غير قدير ولا جدير بعبادة الله ... لأن الله لا يميز بين جنس وجنس ، ولا

فصيلة وفصيلة ... هو النور العام الذى يضىء كل الكائنات ... وهو الحب العام الذى يربط كل شىء بكل شىء ... ولكن الإنسان لا يفهم ذلك ... إنه لا يرى إلا ما تصنع له يده من صور نفسه الجشعة الأثرة ، المتعجرفة العمياء ... كلا ... إن الله بعيد ... بعيد عن الإنسان ... وإنه أرفع وأعلى وأعمق من أن يتصل به الإنسان ... ربما كنت أنا وفصيلتى أقدر على حبه ... هل سمعت منذ بدء التاريخ أن فصيلة الحمير عبدت أصناماً ؟!...

ــ إنى معك ... مع الأسف .

ــ أجبنى إذن : ما فائدة الطوفان إذا كان ...

ــ إذا كان لا يستطيع أن يغرق إبليس ؟!...

ــ أرجو ــ قبل كل شىء ــ أن لا تصدق أن إبليس دخل السفينة متعلقاً بذيل الحمار !...

ــ بل هذا أصدقه ...

ــ تصدق هذا ؟!...

ــ بالتأكيد ... لأن الحمار يحمل نفساً صافية ، ومبادىء مثالية ، وإبليس خبيث ، يحب العبث والسخرية ، ولا يحلو له أن يعبث ويسخر إلا من أصحاب النفوس الخيِّرة والمثل العليا !... فلا عجب إذا دخل مكاناً أن يتعلق بتلابيب أطيب القوم قلباً ، وأسماهم فكراً ... إنه لا يلازم التافهين ، ولكنه يتمسح بذوى الشأن ... إنه يحب الدخول من الباب الكبير ... لذلك ترانى أنظر إلى هذا الطوفان الأخير بعين القلق ... أبحث عن الرجل المثالى الذى سيدخل فى أذياله إبليس !...

ــ أكتب عليكم هكذا معشر البشر أن تعيشوا فى سفينة ضالة فى بحر

الظلمات بغير المثل الأعلى ... تحيون كالديدان فى الحمأة ، يأكل بعضكم بعضاً ؛ فإذا وُجد فيكم من يحمل مشعل المثل العليا انقلب سخرية للساخرين ولعبة فى أيدى العابثين ؟؟!...

— تلك هى المشكلة ...

— حتى الطوفان لم يحلها ...

— لم يُجعل الطوفان ليحل شيئاً ... ولكن ليلطف من وقع الأشياء .. إنه حمام يهدىء أعصاب البشرية كلما احتاج الأمر ، لقد فقدت الأمل فى وجود العلاج الحاسم ... فلم يعد حتى طوفان الدماء فى نظرى غير نوع من الحجامة أو الفصد ، يلجأ إليه الإنسان كلما ازداد الضغط ...

— أتدرى أين العلاج ؟...

— أين ؟...

— عندى ...

— عندك ؟...

— نعم ... عندى العلاج ... وإذا قلت لك عندى ؛ فإنما أقصد عند فصيلتى ... فنحن نفكر جميعاً تفكيراً واحداً ، فليس عندنا حمار مثالى وآخر ... مادى،وليس عندنا زعماء ولا قادة ، ولا أوثان ولا أوطان ، بل يوجد حمير على أرض الله وكفى ... شعورها واحد وقلوبها واحدة ...

— هذا جميل ...

— نعم ... ولذلك أستطيع — إذا سمحت لى — أن أجد العلاج لكم معشر الإنسان !...

— حقاً ... هذا هو الذى كان ينقصنا !... يالمجد الإنسانية المنهار !... أيذلنا القدر هذا الإذلال ؛ فلا نجد من يهدينا إلى علاج أمرنا

غير حمار ؟!...

ـــ كبرياؤكم ... كبرياؤكم ... كبرياؤكم الزائل ... إنه فى دمكم !... دمكم الذى فسد ... لا أمل فيكم ولا علاج لكم إلا بعملية نقل الدم ... نقل دم جديد ...

ـــ أظنك ستقترح أن ينقل إلينا دم حمير ؟!...

ـــ لا ... إنها لتضحية كبرى من فصيلة الحمير ؛ لا أنصح لها أن تتحملها من أجلكم ...

حمارى وهتلر

جعل حمارى يحدثنى ذات مساء فى الطغيان والطغاة ، ويسترسل فى الحديث وأنا عنه لاه كالنائم ، وما أنا بنائم ... فلقد انتزعنى خيالى وطار بى ، وألقانى فى أساطير الماضى : بين يدى « شهر زاد » وأنا أعرف شهر زاد كل المعرفة ... وقد أبرزتها فى كتاب ... آه ... يا لها من امرأة ...

شهر زاد !... إذا انفرجت شفتاك عن هذا الاسم ، فاعلم أنك لفظت باسم عظيم فهو اسم تلك التى استطاعت أن تجعل من شهر يار سافك الدماء رجلا مهذباً ، محباً للخير مترفعاً عن العدوان ... لقد دخلت حياة ذلك الملك الطاغية كما تدخل الروح الطيبة جسداً أصم أو الريح المخصبة واحة مقفرة ... واهتدى شهر يار بهديها ، وتمت بذلك معجـزتها ، فانزوت فى بطون الأساطير ...

ولكن فى هذا العصر عاد شهر يار جديد إلى الظهور ، لا فى صورة ملك بل فى صورة (فوهرر) يقطن قصراً ، لا فى بغداد ، بـل فى برختشجادن ... وهو لا يكتفى بذبح عذراء فى كل صباح ، كما كان يفعل شهر يار الأول ... بل إن « حمام الدم » الذى لديه أرهب وأروع !...

وشرد بى الخيال ، فتصورت شهر زاد تستشيرنى — بصفتى مؤلفها — فى أن تذهب إلى الزعيم العصرى كما ذهبت من قبل إلى ملك الزمان الغابر ،

لعلها تظفر بهدايته ، كما ظفرت بهداية سلفه ، ولعلها تنتشله من الطغيان ، وتربحه لخير بنى الإنسان ... فحمدتُ لها عواطفها الرقيقة ومشاعرها النبيلة ، ولكنى ترددت إشفاقاً عليها وقلت :

ـــ أيتها العزيزة شهر زاد !... جُعلتُ فداك ... لقد خطر ببالى كل ما خطر لك ، ولقد رأيت من واجب الكاتب أن يجهر بما يعتقد ، فرسمت « لصاحبنا » من الصور ما سوف يعرّض عنقى لمديته ، ولسوف أدعى إلى حمام الدم ، وأنا لا أعرف السباحة ؛ فيكون هذا حمامى الأول والأخير ... أما أنت يا ذات الجمال ... يا من اعتدت السباحة بجسمك العاجى فى ذلك الحوض من المرمر القائم فى قصرك العجيب !...

فقاطعتنى شهر زاد قائلة :

ـــ أتخشى علىّ وأنا الخالدة !؟... خف على جلدك أنت أيها المخلوق الهالك !... أكبر ظنى أن إشفاقك هذا ليس على شخصى بالذات ، إنما هو على كتابك عنى ؛ الحامل اسمى الذى سوف يحرق ويباد إذا فشلت فى مهمتى ووقع بينى وبين هتلر العداء ... يا لهؤلاء الأدباء والكتاب إنهم يخافون على جلد كتبهم أكثر مما يخافون على جلد أجسامهم .

وتركتنى بلا تحية ولا وداع ، واختفت عن بصرى ، وارتفعت فى الفضاء ومضت إلى قصر « برختشجادن » .

***

كان « هتلر » فى ذلك المساء منفرداً فى قاعة كبيرة من قاعات القصر ، يطيل التأمل أمام خريطة حربية ، وقد شرد ذهنه واتجهت عيناه إلى نافذة بلورية تشرف على الوديان الخضراء المحيطة بذلك الجبل الذى يقوم عليه قصره المنيع ، وإذا هو فجأة يسمع خلفه حفيف الثوب ، وهفيف غلالة

حريرية ، ويشم عطراً شرقياً ملأ جو المكان ، فاستدار ، فألفى نفسه وجهاً لوجه أمام امرأة لم يقع بصره قط على أجمل منها ... فعقد لسانه ، وجمد فى مكانه ، ومرت لحظة أو لحظات ... ثم أفاق قليلا ، وقال لها كالهامس :

— من أنت ...؟

فقالت الجميلة :

— أنا شهر زاد ... جئت إليك من الشرق ...

وكأنما غُمر هتلر فى حلم ، فإذا هو لساعته يحس الأشياء من حوله تخف وترتفع قليلا فى الهواء ، وحُلت عقدة لسانه ، وتحرك من مكانه ، وخف لاستقبال شهر زاد ، وكأنه يعرفها معرفة الأصدقاء منذ أعوام ... وأجلسها فى صدر القاعة .. وأراد أن يقدم إليها من الطعام والشراب ما يقدم إلى الأضياف الكرام ... فأبت وشكرت ، وأشارت إليه بالجلوس والإصغاء ، قائلة :

— فلأخبرك أولا سريعاً ، لماذا جئت إليك ، إن مقابلتنا الساعة قد يتوقف عليها مصير العالم .

فقطب هتلر جبينه ، وزالت عنه غمرة الحلم وقال :

— جئت فى مهمة سياسية ؟... فهمت ، ما أجملك رسولا من الدول الديموقراطية !... إنها لشجاعة منك أن تقودى طائرة بمفردك !... أين هبطت يا سيدتى الطائرة التى جئت بها ؟...

— أية طائرة ؟...

— عجباً !... كيف جئت إذن ؟...

— قلت لك أنا شهر زاد ... شهر زاد الأساطير ... شهر زاد التى

طالعت خبرها ، ولا ريب ، وأنت صغير ... وأنا بالطبع لا صلة لى بالديموقراطية أو الفاشستية ؛ لأنى — كما تعلم — أنتمى إلى زمان لا يعرف هاتين الكلمتين ... إنما أجىء إليك اليوم بصفتى الشخصية ، كما جئت من قديم إلى الملك شهريار ، فلبثت عنده ألف ليلة وليلة ، أقص عليه من ألوان القصص ما غير نظره إلى الحياة ...

فقاطعها هتلر قائلا ، وهو ينظر إلى خريطته الحربية :

— ليس لدى وقت للإصغاء إلى القصص ...

— هذا من سوء الحظ ...

قالتها شهر زاد بنظرة لم تصمد لها عيناه ، فأطرق قائلا :

— ربما كان هذا من سوء حظى حقاً ، فأنت امرأة جديرة أن يجلس إليك رجل أكثر من ألف ليلة وليلة ، ولكنى مشغول كما ترين ، ولا أحسبنى أملك الإصغاء إليك أكثر من ليلة ... إن العصور قد تغيرت ... وإن مصائر الشعوب تتقرر أحياناً فى جلسة واحدة بقاعة مؤتمر أو مقصورة قطار ... اطرقى يا سيدتى الموضوع من بابه ... وأوجزى !...

لم تيأس شهر زاد من هذه اللهجة الجافة ... وقالت مترفقة :

— اطمئن ! ... إنى لا أجلس إلى أحد رغماً عن إرادته ، وإنى لمقدرة قيمة وقتك الثمين الذى تنفقه فى ... فى هدف لا أقرك عليه ، وقد أكون مخطئة ، وقد تكون أنت المخطىء ... ثق أنى غير مقيدة برأى ... غير متعصبة لمبدأ ... إنى حرة حتى الآن مثل هذا الهواء ، وقد جئتك لأقنعك بما أرى ، أو لتقنعنى بما ترى ... فليكن بيننا الساعة صراع هادىء بين روح المبادىء .. هل قبلت ؟

— قبلت ...

قالها هتلر مبتسما ، وقد طمع فى إقناع شهر زاد ، وأمل فى أن يربحها هو إلى جانبه ، ومن يدرى ؟... لعله يستطيع أيضاً بعد ذلك أن يلحقها بوزارة دعايته تحت إدارة الهر جوبلز ... ليس بينه إذن وبين تحقيق هذا الأمل سوى أن يقنع شهر زاد بآرائه ... هنا رفع رأسه مستبشراً ... ومر بيده على خصلة شعره المتهدلة على جبينه كأنها جناح غراب وقال :

— سوف أقنعك بمبادئ ...

— بغير عنف ؟ ...

— بغير عنف ...

— إنه ربح لا يستهان به ، أن تسمح بحرية الرأى والكلام والمناقشة ، ولو إلى أجل قصير !..

قالتها شهر زاد بابتسامة ذات مغزى ، فأدرك هتلر لساعته أنه يكاد يقع فى فخ هذه الشرقية الجميلة ... فليس هو الذى قد يكسبها ويجذبها إلى النازية ... ولكن الخوف أن تجذبه هى — بغير أن يشعر — إلى روح الديموقراطية ... فتجهم وجهه ، وعادت إليه من الفور طبيعة الجبروت ، فضرب المائدة بقبضته وصاح :

— كلا ... لست أسمح هنا على الاطلاق بحرية الرأى أو روح الديموقرطية ، وأرجو منك أن تكفى عن ذكر هذه الألفاظ إذا أردت أن نتفاهم !...

فابتسمت شهر زاد وقالت متلطفة :

— وكيف نتفاهم بغير حرية التفاهم ؟... ماذا تخشى منى وأنا أحادثك على انفراد والأبواب مغلقة ، ولا يسمع حديثنا أحد من شعبك ... إذا لم تطلق لى الحرية الساعة فى محادثتك ، فمعنى هذا أنك تخشى أن

أقنعك ؟...

ـــ كلا لست أخشى شيئاً ... تحدثى بكل ما تزيدين ...

قالها وهو يتلفت يمنة ويسرة ليتأكد من أن الحيطان ليس لها آذان ، واعتدلت شهر زاد فى جلستها وقالت :

ـــ إنى لا أحب العنف فى الإقناع ، لا لأنى ديموقراطية النزعة فأنا كما قلت لك لست أنضوى تحت حزب من الأحزاب ، ولكن تلك طبيعتى منذ القدم ، وإنك ولا شك تعرف قصتى مع شهر يار ، هل تذكر أنى لجأت إلى العنف فى إقناعه ؟...

ـــ أشهد أنك كنت بارعة ، ولكن ذلك لا يمنع من القول أنك كنت امرأة خطرة ، لقد كنتِ أنت ـــ ولا تؤاخذينى ـــ الخليقة دون غيرك بحمام الدم ، فإن المرأة التى تستطيع أن تحول ملكها عن سياسته ، وأن تغير نظام حكمه فى دولته ولو إلى الأصلح ؛ لهى على كل حال امرأة ثائرة على النظم ...

ـــ إنى لم أكن ثائرة ، و لم أتدخل يوماً فى سياسة شهر يار ، و لم أنصحه يوماً بإبرام أمر أو الإقلاع عن فعل ... إنما دخلت حياته كبصيص النور الضئيل المتسلل من خصاص الأبواب ، فإذا هو يرى ما لم يكن يرى ، وإذا هو يصلح نفسه بنفسه ، ويتحول من حال إلى حال ، ومن سياسة إلى سياسة من تلقاء ذاته ...

ففكر هتلر لحظة ثم قال :

ـــ ألم تكن هناك مؤامرة من الشعب ؟... إن شهر يار كان يدخل كل ليلة بعذراء يقتلها فى الصباح ، حتى كادت تنقرض من بلاده العذارى ، فلا بد أن الشعب ضج ، وغضب وتهامس ، وتآمر ... اعترفى ... ألم

تكونى موفدة من قبل الجماهير ؟...

ـــ كلا ...

ـــ من يدرى ... لو كان لشهريار « جستابو » فى ذلك الحين لتدارك الخطر قبل وقوعه ...

ـــ الحمد لله إذ لم يكن لديه ذلك ... لو أن هذا حدث لما كان ...

ـــ لما كان اسم شهرزاد ظهر فى سماء التاريخ ... ولما عرفت الأجيال غير اسم شهريار وحده !...

ـــ دعنا من التاريخ ... إنما الذى يجب أن تحفل به هو الانقلاب الطيب الذى حدث لذلك الملك ... إنه ولا شك قد رضى عن نفسه كل الرضا يوم رأى الأشياء كما ينبغى أن تُرى ...

سكتت شهرزاد ... وحدجت الفوهرر بنظرة طويلة ... فخفض بصره قليلا وأطرق ... ثم قال :

ـــ إن لك يا شهرزاد أسلوبا عجيباً فى الكلام ... إنك تريدين أن تلقى فى روعى أن هنالك أشياء عظيمة ترينها أنت ولا أراها أنا ... وتحاولين أن تدخلى فى نفسى الشك فى مبادئ ... ولكن فاتك أنى أضع العقل دائماً فى المحل الثانى ، والفكر فى المقام الثالث ... أما المكان الأول عندى فهو للإيمان ... إنى أومن وأنا مغمض العينين ، موصد الأذنين ، مغلق العقل ... أومن بمبادئ وحدها أومن وأومن ؛ ثم أومن ... تكلمى بعد ذلك بما شئت ...

فابتسمت شهرزاد ثم قالت فى دهاء :

ـــ من قال لك إنى أريد أن أهز إيمانك بمبادئك ... إنى جئت لأقنعك أو لتقنعنى ... وقد أفشل أنا معك ، وقد تفشل أنت معى ... إنى تواقة إلى

الحرية ... حرية البشر أجمعين ، ولقد ذهبت إلى شهر يار عندما رأيت حرية الشعب وبنات الشعب فى خطر : مبدئى هو الحرية لكل إنسان ، ولا استعباد لأى إنسان ... فمن كان يعمل لهذا المبدأ فأنا معه ، سواء كان أنت أو خصومك ... هذا قولى ... فاغمض عينيك عنه ، صم أذنيك إذا شئت ، وأغلق فكرك ... ولكنى أنا فاتحة عينى وأذنى لأتلقى عنك ما تقول ، وأزن ما تدلى به ، وأتقبل الطيب من حديثك إذا وجد ... ولا أكره أن أقتنع بمبادئك إذا كانت نافعة للناس ، فإن المكان الأول عندى دائماً هو للفكر الحر ، والاقتناع المطلق ، ثم الإيمان بعد ذلك .. تكلم فأنا مصغية إليك ...

واتكأت شهر زاد بساعدها على طرف المقعد ، وغرقت فيه ، ورنت إلى هتلر بعينيها الصافيتين العميقتين ، فاختلج قلبه قليلا ... ولكنه تماسك وقال :

ـــ اعلمى أولا أنى ذو قلب ... حذار أن تقارنى بينى وبين شهر يارك ... إنه كان يسفك دماء العذارى ؛ لأنه لم يكن يعرف الحب ... أما أنا فقد أذنت بحمام الدم لأنى أحب ...

فقالت شهر زاد فى سخرية غير ملحوظة :

ـــ امرأة ...؟

فأجابها هتلر فى لهجة مثل لهجتها :

ـــ إنى لست همجياً حتى أقدم مثل هذا القربان لامرأة ! ...

ـــ إنك حقاً رقيق الشعور !..

ـــ ما من امرأة عندى جديرة بأن أهرق من أجلها قطرة من الدم ... لقد قلت لك إنى ذو قلب !... وأى قلب !؟... إنه أرحب من أن يحوى

امرأة ... إنه يحوى ألمانيا ...

وصمت ... فابتسمتْ شهر زاد ، وقالت فى هدوء :

ــ كنت أحسبه أرحب من ذلك .. وأنه يحوى شيئاً أعظم من ألمانيا .

ــ ماذا ؟...

ــ الإنسانية ...

لفظتها شهر زاد فى همسة عميقة ... فوجم هتلر لحظة ، ثم قال :

ــ ماذا تعنين ؟...

ــ أعنى أنك لو أحببت الجنس البشرى كله ؛ لا الجنس الآرى وحده ... لكنت أعظم ألف مرة مما أنت الآن ، وبما تريد أن تكون . أصغ إلىّ ملياً ... لماذا لم تفكر فى هذا المجد ؟... يدهشنى حقاً أن مثلك لم تخطر له هذه الفكرة !... إن حياتك معجزة لا ريب فيها ، فلماذا لم تستخدم هذه المعجزة لغاية أعظم وغرض أسمى ؟!... لماذا لم توجه قوتك وثورتك للارتفاع بالإنسانية كلها ... فيسطر التاريخ لك صفحة لا يسطر مثلها لغير الرسل والأنبياء ؟...

إن الصفحة التى يعدها التاريخ لأعمالك اليوم ؛ ليست بذى شأن عظيم ، وقد كتب مثلها الكثيرون من قادة الجيوش الذين فتحوا العالم معتمدين على القوة العسكرية ... ففرحوا بأكاليل النصر الحربى الذى زان جباههم ، ولم يفطنوا إلى أنها أكاليل من الزهر الذى يذبل بعد حين ... ولقد ذبلت فعلا ، وهوت ، وذرتها الرياح ؛ كل تلك الفتوح التى تفاخر بها أولئك القواد العسكريون ... ذلك أن لا شىء يثبت فى الأرض وينبت الثمار الصالحة الخالدة غير البذرة الطيبة التى يلقيها فى نفوس البشر رجل يحب الإنسانية كافة .. هذا هو المجد الذى ليس بعده مجد لإنسان !.

— إنك امرأة ... ولا يدهشنى قط من امرأة أن تبخس قدر النصر الحربى !...

— النصر الحقيقى هو لذلك الذى يستطيع أن يسير بالبشرية ، ولو خطوة ... ويسعدها ، ولو لحظة ... إن كلمة نبى ، أو ترنيمة شاعر ، أو تغريدة موسيقى ، لأبقى على الدهر من صيحات الظفر وطبول النصر فى أكبر معركة حربية !.

— عجباً !...

— فيم العجب ؟... إن ذلك الذى يستند إلى قوة الله — وهو النبى والرسول — وذلك الذى يستند إلى قوة الفكر — وهو العالم والفنان — لأبقى وأخلد من ذلك الذى يستند إلى قوة الجيش !!...

شرد هتلر بخياله لحظة ... وقال كالمخاطب نفسه :

— وأسفاه !... لطالما تقت إلى أن أكون نبياً !...

— من أجل ذلك هاجمتَ الله والكنيسة ؟!...

— ولطالما تقت إلى العلم والفن !...

— ولهذا نفيت العلماء والفنانين ؟!...

— عبقرية بلادى هى عبقرية عسكرية قبل كل شىء ... لم أفطن إلى ذلك يوم قامت فى نفسى تلك القوى الجائحة تدفعنى أن أعمل شيئاً للتاريخ ... لا تنكرى يا شهر زاد أن المعجزة تتخذ لون الأرض التى تظهر عليها ، وأن العظيم يتغذى ككل نبات بعناصر التربة التى ينبت فيها !... لا تحسبى عبقرية ألمانيا أو أوروبا تصلح لإبراز نبى من أنبياء الشرق !...

— هذا صحيح ... ولكن العظيم يجب أن يثور على أوضاع بيئته وأمته وعصره ، لينشر تعاليمه التى تنفع الإنسانية كافة ... هكذا فعل المسيح

ومحمد ؛ لقد كان كل منهما يجاهد وحده ضد وطنه وزمانه ليبذر فيهما المثل الأعلى الإنسانى ... وقد اضطهدا وعذبا فى سبيل ذلك ، وقد انتصرا آخر الأمر ذلك الانتصار الخالد على الزمان وما بعد الزمان ... ثق أنى لا أخدعك ... إن الخلود هو لمن يعمل لخير الإنسانية كلها ، ولرفعة الجنس البشرى كله ... لهذا كانت غلطتك الكبرى ، أنك أحببت جنساً واحداً ، وكرهت بقية الأجناس !... وعملت لرفعة شعب واحد ليستعبد بقية الشعوب !...

وأدرك شهر زاد الصباح ، فسكتت عن الكلام « المباح » .

ــ المباح مؤقتاً بإذن خاص من هتلر ــ وسكت « الفوهرر » ولا يدرى أحد أكان سكوته لاقتناعه بحديث شهر زاد ، أم للتفكير فى طريقة للتخلص من هذه المرأة الخطرة ؟؟...

حمارى وموسولينى

قال لى حمارى ، وهو يحدق معى فى أعمدة الصحف يوم روت خبر سجن « موسولينى » فى قلعة جزيرة « بونزا » قبل أن يهرب منها :

ـ ترى كيف تتصوره وهو فى سجنه ؟!...

فشرد ذهنى لحظة ، ثم قلت كالمخاطب لنفسى ، وكأنى أبصر شريطاً متحركا :

أتصوره جالساً « منتفخاً » وقد دخل عليه ضابط من جنود الكارابينييرى القائمين بحراسته ... فدار بينهما الحديث التالى :

الحارس : هل طلبتنى يا سيدى ؟...

موسولينى : أردت أن ألفت نظرك إلى أن الطعام هنا ردئ ...

الحارس : لقد نسوا يا سيدى من غير شك أن يرسلوا إلى هذه الجزيرة طهاتك البارعين فى قصر روما الفاخر !...

موسولينى : لقد نبهتك قبل الآن أن تكف عن مخاطبتى بكلمة « سيدى » ... إنى أصر على مناداتى بلقب « الدوتشى » !...

الحارس : ليس لدينا أوامر بذلك يا سيدى .

موسولينى : لديكم فقط أوامر بقتلى إذا حاولت الهرب ؟!...

الحارس : هو ذاك يا سيدى ...

موسولينى : لو كنت قرأت تاريخ « نابليون » لعلمت أنه كان يصر هو الآخر على أن يخاطب وهو سجين فى جزيرته بلقب « الإمبراطور » ...

الحارس : وهل أجابه حارسه إلى ما طلب ؟...

موسولينى : كل حارس ذى مروءة وذوق لا يرفض ذلك .

الحارس : أنا أيضاً لا أرفض أن أكون حارساً ذا مروءة وذوق ... فلأمنحك إذن هذا اللقب ... فى هذه الحجرة المغلقة من قلعة نائية فى جزيرة مقفرة ... أتتنازل وتتقبل منى هذا اللقب يا سيدى « الدوتشى » .

موسولينى : ولماذا هذه الابتسامة على فمك ؟...

الحارس : تلك ابتسامة لا أظن من المروءة والذوق أن أطلعك على معناها !...

موسولينى : آه ... حقاً ... حقاً ... هل لى أن ألقى عليك سؤالا ؟...

الحارس : إنى فى خدمتك ...

موسولينى : صارحنى بالحقيقة ... هل أنت وحدك الذى يسخر منى الآن ؟!...

الحارس : أظن أنى لست وحدى ...

موسولينى : من غيرك ؟...

الحارس : كثيرون ...

موسولينى : أكثر من عشرة أشخاص ؟...

الحارس : أكثر من عشرة ملايين ...

موسولينى : عجباً !... من أى دولة ؟...

الحارس : من شعبك نفسه ...

موسولينى : ألا تراك مبالغاً فى التقدير قليلا !؟...

الحارس : من غير شك .. إنى مبالغ فى إنقاص العدد ؛ فإن أولئك الذين سمعوا خطبتك من الإيطاليين وحدهم يبلغ عددهم أكثر من ثلاثين مليوناً ...

موسولينى : أى خطبة ؟...

الحارس : خطبتك الرائعة فى ذلك الموقف الرائع ، وأنت على ظهر مدفع ضخم تصيح قائلاً :

« ثمانية ملايين حربة تنتظر إشارتى بالهجوم ... البحر الأبيض بحرنا ... مارنسترام ... « مارنسترام » .

موسولينى : واأسفاه !...

الحارس : أليس لهذه الملايين الآن بعض الحق فى ابتسامة صغيرة ؟!...

موسولينى : « مارنسترام » !...

الحارس : نعم ... ها هو ذا « مارنسترام » ... بحرنا ... بحرك ... مد إليه يديك من خلال قضبان سجنك الصغير ...

موسولينى : لقد أردت حقاً أن أمنحكم هذا البحر بهاتين اليدين ؛ فوضعتم فيهما الأغلال !!...

الحارس : من سوء حظنا أننا فعلنا ذلك متأخرين !... لقد تبين لنا — بعد فوات الأوان — أنك أعطيتنا حقيقة بحراً ... ولكنه بحر من الدماء !...

موسولينى : هذا قولكم أنتم يا أعدائى ... ولكن الشعب الإيطالى كله

يهتف الآن ...

الحارس : يهتف الآن بسقوطك فى كل مكان ...

موسولينى : أنت كاذب ...

الحارس : لقد سألتنى الصراحة ... ولكنك لم تزل تبغضها وتخشاها ... إن أذنك التى تعودت الإصغاء إلى رياء الخائفين ، وزلفى الطامعين ، وتمويه المخدوعين ما زال يذعرها رنين الصدق والحقيقة ...

موسولينى : أهذا معقول أن يهتف الشعب الإيطالى بسقوطى ؟!

الحارس : المعقول هو أن يفعل ذلك الآن ...

موسولينى : كيف يستطيع ذلك ؟...

الحارس : الأمر بسيط : ما دامت يدك القابضة قد أقصيت عن غطاء الإناء ... فإن البخار المكتوم يستطيع الإنطلاق حراً فى الفضاء !...

موسولينى : أوَينسى الشعب ما صنعت له ؟...

الحارس : إذا أعطيت شعبك كل شيء ، وسلبته حريته ؛ فإنك لم تعطه شيئاً ...

موسولينى : أينسى صوتى الذى هز مشاعره ؟...

الحارس : كلا. هذا لا ينساه. إن صوتك حقاً كان مؤثراً ... وخطبك كانت رائعة ... وحركاتك ووقفاتك كانت بارعة ... وهل ينسى الشعب صوت « كاروزو » أو تمثيل « زاكونى » ؟!

موسولينى : إنى لم أكن ممثلا يا هذا ...

الحارس : إنك كنت ممثلا أتقن دوره حتى نسى نفسه وأنسى الجماهير أنفسها !... إنك أعظم ممثل أنجبته عبقرية إيطاليا الفنية ... مأساة حياتك وحياة إيطاليا الحاضرة : هى أنك لم تتخير الظهور من بادئ الأمر على مسرح التمثيل ، وآثرت اللعب على مسرح السياسة ... لقد اتبعت بغريزتك وطبيعتك عين الطرائق الفنية المسرحية ، فبدأت بدراسة « شخصية » من الشخصيات . كانت هى ، لسوء الحظ أو لسوء الاختيار ، شخصية « نابليون » !... لست أدرى لماذا تجذب هذه الشخصية دائماً هواة التمثيل فى كل ملعب !... درستها أنت فيمن درسها ... وتشبعت بها حتى جاوزت التمثيل إلى التأليف ... فوضعت قصتك التمثيلية عن : « نابليون والمائة يوم » ... وإنى لأتساءل عما منعك من تقمص « نابليون » بنفسك فى روايتك على المسرح الخشبى !؟... لعل المانع هو اشتغالك فعلا بتمثيلها على المسرح الآخر ... كل هذا كان يقبل منك لو أنك مسحت الأصباغ عن وجهك آخر النهار ، وخلعت الأثواب وأطفأت الأنوار ، وصارحت جمهورك بقولك له : « إن هذا كان تمثيلا !... » لأن شخصيات التاريخ لا تتكرر ، وأن أطماع الطغاة تروى كالأساطير ، وأن الزمن قد تغير ، وأن الشعوب اليوم لا ينبغى لها أن تجرى وراء أوهام السيطرة الكاذبة والتسلط الزائف ... بل تسعى إلى حريتها ورفاهيتها فى جو من الوئام والتعاون مع جيرانها من

بقية الأمم والأجناس ... لو أنك نبذت من أول الأمر فكرة التقليد والتمثيل ، وشيدت عملك على أساس جديد من روح العصر وفلسفة الإنسانية النافعة للبشر ... لكنت ارتفعت فى نظر التاريخ عن مجرد ممثل للأدوار القديمة إلى مصلح إنسانى للعالم الحديث .

موسولينى : يدهشنى أن تتكلم هكذا أيها الضابط ؟ أرى أن اختيارهم لك حارساً لم يأت عفواً !.

الحارس : أرجو على كل حال أن يكون فى حديثى بعض الفائدة .

موسولينى : أى فائدة ؟... ما دامت ها هنا نهايتى !

الحارس : هب أنك عدت إلى الحياة ... إلى حياة العمل من جديد ... ماذا تصنع ؟...

موسولينى : أصنع كل ما تريد ... ولكن كيف الخروج من هنا ؟...

الحارس : حقاً ... الخروج من هنا هو المستحيل بعينه ... فهذه الجزيرة الصغيرة محروسة كما ترى بالسفن الحربية من كل الجهات ...

موسولينى : إنى مع ذلك لم أفقد الأمل بعد ... إن « نابليون » سجن هو الآخر أول مرة فى جزيرة « إلبا » وهى محروسة ، واستطاع مع ذلك الهرب ... لا بد من هربى أنا أيضاً هذه المرة كما هرب ...

الحارس : يا للأسف ... إنك أيها الممثل لا تستطيع الخروج قيد شعرة عن نطاق « الدور » الذى تقلده وتحاكيه ...

موسولينى : ولكن لم أنس ما قلت لى ... وسأعمل ما تريد ...

الحارس : لن تستطيع ... ليس فى مقدورك أنت أن تخلق شخصية مستقلة عن شخصيات التاريخ ... لا بد لمثلك من نموذج يسير عليه ... وثوب بطولة زائف يرتديه ... أنت ممثل وكفى !...

موسولينى : سوف ترى ما أصنع إذا كتبت لى العودة إلى العمل ...

الحارس : ماذا أنت صانع ؟... لا شىء غير الاستمرار فى لعب دورك حتى نزول الستار !...

موسولينى : أين ؟...

الحارس : صدقت فى هذا ... أين ؟.. لا بد لك من مسرح ... فإيطاليا اليوم لا تصلح للعبك المعروف ... إن الجماهير سوف تستقبلك بالصفير المزرى أو الإهمال المخجل ... ولكن لك شريكا ما زال يلعب على مسرحه ... من يدرى ... ربما رضى أن يعطيك دوراً صغيراً إلى جانبه .

(أصوات صياح فى الخارج وطلقات نارية)

موسولينى : ما هذا ؟... ما هذا ؟..

الحارس : مكانك ولا تتحرك !...

جندى : (يدخل مسرعاً) هبط النازى بالمظلات !..

(ضابط نازى يقتحم الحجرة بمسدسه)

الحارس : لا داعى لإطلاق النار ...

النازى : « لموسولينى » أيها الدوتشى !...

موسولينى : « يبكى وينتحب من الفرح » إنى ... إنى كنت شاعراً بذلك ...

النازى : لقد أمرنى الفوهرر أن أضعك تحت حمايتى !...

موسولينى : إنى ... إنى كنت واثقاً أن الفوهرر لن ينسانى ...

الجندى : (همساً) إنه يهرب و لم نرمه بالرصاص ؟...

الحارس : (للجندى وهو يتأمل منظر موسولينى) أوَ يريدون منا أن نقتل هذا المخلوق المسكين !...

الجندى : والأوامر التى لدينا ؟...

الحارس : سيدركون فيما بعد أن هذا الرجل لا ينبغى أن يموت موتة جندى ؛ بل ميتة مهرج منسى فقد الهتاف والتصفيق والدوى ...

حمارى ومؤتمر الصلح

قال لى حمارى مرة :

ـــ صف لى مؤتمر الصلح لهذه الحرب ...

فقلت له ، وقد راقنى سؤاله ، وودت لو استطعت الجواب :

ـــ كيف أصفه ؟... إنه لم ينعقد بعد بالطبع هذا المؤتمر ، ولا يدرى آدمى متى ينعقد ... إذا شئت ، فلنلجأ إلى عين الخيال ، نرى بها ما يجرى فيه وما يفضى إليه ...

وعين الخيال هذه كعين الماء فى الصحراء ؛ تستمد مادتها من أغوار الرمال ... رمال الزمن والماضى ... لذلك أتصور أن يعقد مؤتمر الصلح القادم فى « فرساى » مرة أخرى ، وفى قاعة « المرايا » الشهيرة بالذات ... ولكن المبادئ التى ستطرح كأساس للسلام سوف تكون جديدة الوجه ... والرجال المجتمعون حول مائدة المفاوضة سوف ينتخبون طبقاً لفكرة خاصة ... وفى الحق : إنه عقب انتهاء الحرب سيشتد الرأى العام فى كافة الشعوب المحاربة حول هذا السؤال :

من الذى يصنع السلام ؟... أهم أولئك الرجال أنفسهم الذين جاءوا بالنصر ؟... ألا يُخشى أن يكون العمل المنهك والجهد المضنى الذى قام به هؤلاء الأبطال يجعلهم فى حاجة أن ينالوا قسطهم من الراحة، فيتولى عبء الجهاد الجديد رجال جدد ، ممن كانوا أثناء الحرب يدرسون مشاكل

الغد ، ويعدون العدة فى صمت لبناء صرح السلام العالمى ؟.. ثم ألا يُخشى من الرجال المنتصرين إذا تسلموا قيادة الصلح أن تنسيهم حرارة الظفر أنفسهم ، فيحسبون أن واجبهم على مائدة السلم أن يحرزوا لأوطانهم انتصارات أخرى ، وبهذا يضيع معنى الفكرة العظمى ، التى من أجلها بذلت الأرواح وسفكت الدماء ، وهى :

« التعاون الدولى على أساس المساواة والإخاء بين الأمم جمعاء ؟! »

كل هذه الاعتبارات قد تجعل من المحتمل أن توفد الديموقراطيات المنتصرة إلى المؤتمر رجالا مشبعين بهذه الفكرة العليا ... فمثلا قد توفد حكومة تشرشل رجلا مثل « بيفرج » وحكومة روزفلت رجلا مثل « ديوى » وحكومة ستالين رجلا مثل « لتفينوف » وحكومة برلين رجلا مثل « أوتوشتراسر » الخ ... وهكذا تفعل كل حكومات الدول المجتمعة حول مائدة الصلح . ولما كانت مصر مدعوة بطبيعة الحال إلى تبوء مركزها من هذه المائدة ، فقد حق لك يا حمارى أن تسأل عمن سوف تندبه حكومة القاهرة لهذه المهمة الخطيرة .

اسمح لخيالى أن يخلع عنه الآن رداء الرزانة ويقفز قفزة جريئة ، فيتصور أن مندوب مصر هو : العبد الفقير « كاتب هذه السطور » ... ولا تسأل عن السبب ؛ بل تعال معى نشاهد ما الذى سيحدث :

لا شك أن خبر تعيينى سيقابل — كعادتنا فى مصر — بالهجوم العنيف من الحساد . فيمعنون فى تجريدى ؛ لا من الصفات المطلوبة فى عضو المؤتمر وحدها ؛ بل من كافة الصفات الآدمية التى يتمتع بها كل من خلقه الله من ماء وتراب . .

فيرد على ذلك الأنصار بما يعرفونه عنى من الصفات الحسنة ؛ مبالغين

فيها ... ويأتى يوم السفر فتحشد الجموع فى مطار ألماظة ، حيث تقرر أن أذهب طائراً إلى « فرساى » ... ويعلو هتاف الجماهير مذكراً إياى بمطالب البلاد ... فألوح إليهم بالمحفظة التى تحوى الوثائق الرسمية والمذكرات التفسيرية التى عليها تقوم المفاوضات ، ثم تتحرك بى الطائرة مرتفعة فى الجو ، وقد تبعتها بعض الطائرات الخاصة مزينة بالأعلام الخضراء ، تودعنى حتى شاطئ البحر ، ثم حطت الطائرات فى الدخيلة ، وعبرت طائرتى وحدها إلى أوروبا ، وأنا داخلها أفكر فى سر اختيارى للمؤتمر وماذا أنا قائل فيه ؟! ... وأنا لم أدرس بعد أية وثيقة من الوثائق التى بالمحفظة ؛ فقد ضاع وقتى فى مصر بين مطالعة شتائم الحساد فى النهار ، وأقوال الأنصار فى المساء .

لكن لماذا لا أنتهز فرصة هذه الخلوة فى الطائرة وأطالع هذه الأوراق الهامة ؟... ومددت يدى نحوها ولكن ذهنى شرد ... وتلك ولا شك صفة فات حسادى أن يذكروها ضمن ما ذكروه عنى من صفات ... شرد ذهنى فى أمر وصولى إلى فرنسا — وأين يكون مقامى ؟... أفى فندق فى فرساى مع بقية أعضاء مؤتمر الصلح ... ولماذا لا أنزل كما يحلو لى فى « مونمارتر » مثلا ... بذلك الفندق الذى نزلته منذ نحو عشرين عاماً ولى فيه ذكريات ؟... وجعلت أستعرض فى رأسى ذكرياتى يوم كنت أقطن أمام مرقص « الكوليزيوم » المشهور ، وأمضى ليلى أكتب شعراً فرنسياً منثوراً فى الحانة المجاورة لملهى « الطاحونة الحمراء » وأنا أحتسى بيرة ستراسبورج ، وآكل « الكرنب بالسجق » ... وأرمق بنات الهوى الجائعات الجالسات على الموائد حولى ينتظرن الدعوات وأنا أقول لهن :

« يا عرائس الشعر ابعدن عنى ساعة الأكل ، فما فى جيبى غير فرنكات

معدودات ثمن طبقي وحق جمالكن !... »

فى اليوم التالى لوصول طائرتى إلى فرنسا ، افتتحت أول جلسة من جلسات مؤتمر السلام فى قصر فرساى . بحديقته الخضراء ذات النافورات العجيبة ، ينبثق منها الماء فى أشكال وألوان ، كأنه ماسة ملقاة فوق العشب تشع بالأضواء — واجتمع الأعضاء من مختلف الدول حول مائدة كبرى مستديرة فى قاعة « المرايا » ... وقد وضع كل عضو محفظة وثائقه أمامه وجعل يخرج منها الأوراق ... واتخذت مكانى بالطبع بين الجالسين ... وأردت أن أصنع مثل ما صنعوا ... وإذا أنا لدهشتى ومصيبتى وطامتى أتذكر أنى نسيت محفظة وثائقى بالطائرة... والنسيان — قاتله الله — صفة أخرى من صفاتى الممتازة ... ما العمل الآن وقد ضيعت — أول ما ضيعت — المحفظة التى فيها مطالب بلادى !؟...

لم تدم ورطتى طويلا ؛ فقد عزيت نفسى بقولى : إن المؤتمر فى يومه الأول لن يبحث على أى حال فى المسألة المصرية ... ومن هنا إلى أن يجئ دورها يكون الله تعالى قد فتح علىّ بالحل الموفق السعيد .

وغرقت فى مقعدى الوثير مطمئناً ، أستمع إلى المناقشات التمهيدية الأولى بين « بيفردج » و « ديوى » و « لتفينوف » و « شانج كاى شيك » وكلما أوغلوا فى المناقشة فترت قوتى على الإصغاء وتهيأ ذهنى كالعادة إلى الانصراف والانطلاق فى أجواء أخرى ... وبالفعل ... لم يمض غير قليل حتى ألفيت نفسى منهمكا فى حصر عدد المرايا فى القاعة ، وملاحظة حركات ممثل الصين وهى تنعكس على كل مرآة ... ثم طفقت أقول فى نفسى :

ليس أنسب من هذه القاعة لاجتماع نسوى ... فكثرة المرايا تسر المرأة

وتملؤها زهواً وخيلاء ... لكن لماذا تجتمع الدول هنا أيضاً فى قاعة المرايا ؟... أخشى أن يكون هذا سبباً من أسباب الزهو والخيلاء الذى كاد يذهب برؤوس بعض ممثلى معاهدة « فرساى » السابقة !.

مضيت فى هذه الخواطر دون أن ألتفت إلى ما يجرى حولى ... وإذا أنا أتنبه على صوت المجتمعين يقررون أن يبدأ المؤتمر بسماع رأى الأمم الصغيرة ... واتجهت العيون نحوى ... وأعطى الكلام لمندوب مصر ... يا للكارثة !... جاءك الموت يا تارك ... « المحفظة » !... وأصبحت فى موقف لا يحسدنى عليه حساد ولا عذال ... أين محفظتى ؟.. أين ورقى ؟... ماذا أصنع أيها الناس ؟... وماذا أقول ؟... ولكنى وقفت على كل حال رغماً عنى وقد مدنى اليأس والحرج باتقاد ذهن ليس من شيمتى ، فانطلق لسانى يقول :

— أيها السادة الأجلاء ... ليس هنا اليوم أمم صغيرة ولا أمم كبيرة ، إنما نحن أمة واحدة ، وعالم واحد ، يجتمع حول هذه المائدة كما يجتمع أفراد الأسرة الواحدة على مائدة العشاء ... عالم واحد وحريات أربع . أليس هذا هو الدستور الجديد لدنيانا الجديدة كما جئنا لنشيد بناءها ؟... ولا ريب أننا جميعاً متفقون على تلك المبادئ التى أذاعتها الديموقراطيات قبيل انتهاء الحرب ، وجعلتها بمثابة الأركان الأربعة لعالمنا الجديد ... إنها كما تعلمون :

حرية القول والرأى ... حرية العبادة ... والتحرر من العوز والفقر ... والتحرر من الظلم والاستعباد .

إذا تم تحقيق هذه الحريات لكل أمة من الأمم ، فقد استغنت بها عن أى مطلب خاص تتقدم به إلى هذا المؤتمر الموقر ... إلا ما تعلق بالتفاصيل

ووسائل التنفيذ ؛ فهذا بالضرورة يحتاج إلى البحوث الخاصة التى تعرَض على هذه المائدة ... على أنى حتى فى هذه المباحث والطلبات والتفصيلات التى تتعلق بكل دولة على انفراد ، أرى رأياً ، وأقترح اقتراحاً أرجو أن يحوز موافقة المؤتمر ... ذلك الاقتراح هو : أن لا يتولى الدفاع عن مطالب أمة مندوب هذه الأمة ؛ بل مندوب أمة أخرى ... وذلك منعاً من طغيان عاطفة القومية والوطنية على الشعور بالمصلحة الإنسانية والعالمية ... فمثلا يتولى الدفاع عن مصالح أمريكا مندوب الصين ، وعلى العكس ... وتقوم تركيا بالدفاع عن مطالب الروسيا ... وفرنسا عن ألمانيا ... ومصر عن إنجلترا ... وهكذا ...

وسكتُّ لحظة أمام نظرات مستر « بيفردج » وهو يفحصنى بعينيه متعجباً ... ولكنه عاد فأخذ الأمر على وجهه الحسن ، فارتسم التفاؤل على شفتيه فى صورة ابتسامة رضا شجعتنى وشجعت جميع الأعضاء فهتفوا معاً موافقين على هذا الاقتراح ... ونهض « ديوى » فصافح « شانج كايشك » وقام « سراج أو غلو » فسلم على « ليتفينوف » ، وانحنى « شتراسر » يحيى « ديجول » ... ودعانى المؤتمر إلى المضى فى الكلام ، فقلت :

— أرجو أن يكون مستر « بيفردج » مطمئناً إلى وضع مصير بلاده بين يدى . كما أطمئن أنا إلى وضع مصير بلادى فى يده ، وليسمح لى أن أوجه التفاته إلى مشاكلنا الاجتماعية التى تحتاج إلى علمه وخبرته وفطنته ... فرفع مستوى الفلاحين يتطلب مشروعاً ضخماً يماثل مشروع التأمين الاجتماعى بالنسبة إلى إنجلترا ... وتوطيد مركزنا الاقتصادى ، وزيادة الثروة الأهلية ، والمحافظة على مستواها ؛ سواء بإدخال وسائل إنتاج

جديدة أو بتحسين الإنتاج الزراعي والصناعى القائم ... كل ذلك موكول إلى بحثك المستفيض وهمتك العالية ، أما مسائلنا الخارجية فإنها ستوضع ولا ريب على الأسس العامة التى تقوم عليها العلاقات الخارجية لكافة الدول ، فإنه تحت ضوء هذا المبدأ :

« عالم واحد ، وحريات أربع » سوف تحل كثير من المشاكل وإن فى صيحة الديموقراطيات المدوية بأن « فى الإمكان القضاء على القوة كوسيلة للأعمال السياسية إذا قوبلت ووجهت بقوة أخرى أعظم منها تقوم على دعائم اقتصادية وخلقية ، ويعززها بوليس مشترك ، يمنع أية دولة أو مجموعة من الدول أن تجد الفرصة التى تمكنها من الاعتداء على أية دولة مجاورة لها فى أى مكان فى العالم » ... إلخ ... هذه الصيحة ستمحو ولا شك كل الصعوبات التى وقفت فى سبيل الصداقة بين الشعوب القوية والضعيفة ... هذا فيما يختص ببلادى ، وقد وضعته بين يديك ... أما فيما يختص ببلادك فأمره سهل ، ولا شك أنك قد وضعت فيه البحوث والدراسات ، وملأت مذكراتك ووثائقك مشروعات ... وليس لى إلا أن أمد يدى وأقول لك يا مستر « بيفردج » سلمنى محفظتك ...!

حمارى وحزبه

دار بينى وبين حمارى يوما هذا الحوار :

الحمار : أريد أن ألقى عليك سؤالا شخصيا ... أتأذن لى ؟...

الحكيم : العفو ... تفضل !...

الحمار : ألم تفكر فى الانضمام إلى حزب من الأحزاب ؟...

الحكيم : لماذا ؟... القهوة التى أجلس فيها الآن مريحة جداً وتعجبنى للغاية ... ولا أريد بها بديلا ...

الحمار : خطرت لى فكرة جديدة طريفة ...

الحكيم : خيراً ...

الحمار : ما رأيك لو ألفنا نحن حزباً ؟...

الحكيم : سياسياً ؟...

الحمار : عاملا ... إنك تعلن إلىّ فى كل مناسبة إعجابك بى وبفصيلتى من الحمير ؛ لقوة مراسنا وطول صبرنا وشدة جلدنا على العمل ... فما قولك لو شرعنا فى انتخاب نحو ثلاثين حماراً من الطراز الأول ، نؤلف منها الحزب ؟...

الحكيم : حزب من الحمير ؟...

الحمار : ولِمَ لا ؟...

الحكيم : أوَ تظن أنك أحدثت جديداً فى السياسة ؟...

الحمار : على كل حال الجديد هو رئيس الحزب الذى يلون الأعضاء بلونه ...

الحكيم : ومن ترشح للرياسة ؟...

الحمار : أرشحك أنت بالطبع ...

الحكيم : أتظن أنه سيوجد انسجام بينى وبين الأعضاء ؟...

الحمار : لا شك عندى فى ذلك ... إنك خير من ينسجم مع هؤلاء الأعضاء ...

الحكيم : أهذا مدح لى أم ذم ؟!... ما علينا ... أنا أتشرف بإسناد هذه الرياسة إلى شخصى المتواضع ، ولكنى لا يسعنى إلا الاعتذار ... فالمسئولية جسيمة ... وأنا أفضل أن أكون عضواً بسيطاً فى هذا الحزب ... من رأيى ترشيحك أنت للرياسة ...

الحمار : أنا لا أصلح ...

الحكيم : لِمَ لا ؟... الانسجام مفقود بينك وبين الحمير ؟...

الحمار : بالضبط ...

الحكيم : وغير مفقود بينى وبين « حضراتهم » ؟!...

الحمار : بالضبط ؛ لأن مسألة الرياسة — كما لا يخفى — دقيقة جداً ... تولد دائماً مشكلات وعقبات وخصومات ... وإنك لتعلم أن كل مشروع نافع لا يفسده غير التنافس على الرياسة ... وكل اتفاق لا يقف فى سبيله إلا الخلاف على الرياسة ... فإذا أردت نجاحاً لمشروعنا هذا ؛ فليكن الرئيس من الخارج ...

الحكيم : فهمت ... والمبادئ؟ ...

الحمار : ليس الآن وقت البحث فيها ... المهم هو تشكيل الحزب ، وانتخاب الرئيس ، واختيار المكان المناسب أو النادى الملائم .

الحكيم : عجباً ... حتى أنت يا ...

الحمار : ألست معى ؟...

الحكيم : أبداً ... أبداً ... ما الذى صنعناه إذن ؟...

الحمار : ماذا كنت تريد أن نصنع أكثر من ذلك ؟...

الحكيم : أشخاص ، ومكان ، وناد ... إنى يا سيدى — كما تعلم — لا أعرف لعب الطاولة ولا الشطرنج ... ولست ساحر الحديث ، ولا ظريف المجلس ، ولا أحب أن أكون من ذوى الجاه ... كل ما عندى قلم لا أرضى أن أسخره فى هدم الأشخاص لمجرد الهدم ، ولا أن أستخدمه فى بناء أشخاص طمعاً فى الغنم ... إنما هو خادم بالمجان ؛ لأى فكرة كبيرة أدافع عنها ... تلك هى كل مهمتى وكل مطلبى ، والباقى لا وزن له عندى ...

الحمار : ما هذا الكلام ؟... تريد فكرة كبيرة وفلسفة عظيمة ولا تريد الهدم ، ولا الغنم ، ولا المال ، ولا الجاه ، ولا ... إلخ ... تريد أن تعلن ذلك حتى يقولوا عنا : إنه حقيقة حزب حمير ؟!...

الحكيم : واأسفاه ... كنت أحسن الظن بآرائك ...

الحمار : آرائى كلها صائبة ... ما من مرة أوحيت إليك برأى

خاطئ ... أنسيت يوم جعلنا نحصى ما نشرت من أفكار ؛ فوجدنا أن كل آرائك السليمة الحصيفة خرجت من رأسى أنا .. وكل آرائك السقيمة السخيفة صدرت من رأسك أنت ؟..

الحكيم : هس ... لئلا يسمعك أحد ...

الحمار : لا تخف .. إنى أخفض صوتى ... ولكن اعترف أن آرائى التى أوحيت بها إليك ثبت صلاحها فى كل حين ...

الحكيم : لا أذكر أنه ثبت صلاح أى رأى من آرائنا ــ أى آرائك ــ اضرب لى مثلا واحدا ...

الحمار : ما أضعف ذاكرتك ... خذ مثلا رأيى الأخير الخاص بتعدد الزوجات ...

الحكيم : « يا ساتر !... » ألم تر كيف قامت قيامة النساء فى كل مكان على هذا الرأى ... وقلن : إنه لا يصدر حقاً إلا عن حمار ؟!...

الحمار : الحمد لله !... أرأيت ؟... إن آرائى لها طابع خاص لا يمكن أن يخفى ...

الحكيم : لهفى على ذلك الفيلسوف الإنجليزى الذى قرأت خبره أخيراً فى الصحف !...

الحمار : حقاً ... ماذا ترى نساء مصر قائلات عنه ؟... إنه أعلن أن عدد النساء فى إنجلترا يزيد مليونين على عدد الرجال ... ونادى هو الآخر بضرورة التعدد ... وأبدى استعداده هو بالذات للاقتران بست زوجات ؟!...

الحكيم : الحق أن رأى هذا الإنجليزى أدهشنى ... وأعاد إلى نفسى بعض الثقة فى حصافة رأيك ورجاحة عقلك ...

الحمار : من يدرى ؟... ربما كان لى ابن عم نشيط ، نزح إلى بلاد الإنجليز هو الذى أوحى بهذا الرأى إلى ذلك الفيلسوف ؟!...

الحكيم : لا أظن الحمير تستطيع أن تعيش فى جو إنجلترا ...

الحمار : وكيف إذن يفكر الفلاسفة هناك هذا التفكير السليم ؟!...

الحكيم : لست أدرى ...

الحمار : يسرنى على كل حال أن نكون متفقين فى الرأى ، أنا وهذا الفيلسوف الإنجليزى ...

الحكيم : وأنا يدهشنى أنى لم أسمع حتى الآن أن نساء إنجلترا أقمن القيامة على زميلك الفيلسوف هذا ... المطالب بست زوجات ؟!...

الحمار : إنى لم أذهب إلى إنجلترا ولا أعرف عنها شيئاً ... ولكن ربما كانت النساء هناك غير مثقفات ...

الحكيم : غير مثقفات ؟... نساء إنجلترا ... وفيهن أعضاء فى البرلمان ؟!...

الحمار : عجبا ... إذن لماذا لم ينهضن على الأقل فى البرلمان صائحات ضد هذا الرجل ؟!...

الحكيم : أظن أن النساء هناك لا يصحن لأنهن يعملن ...

الحمار : أوَ تركن إذن زميلى الفيلسوف يقول ما يريد ؟!!...

الحكيم : طبعاً ... وهل كنت تنتظر أن يضعن فى فمه اللجام كما يتمنى نساؤنا أن يفعلن بك وبى ؟...

الحمار : أريد أن أسألك سؤالا محيراً ؟... بماذا تفسر سعة صدر المرأة الإنجليزية مثلا ، وضيق صدر المرأة المصرية ؟... ما السر فى أن نساء إنجلترا لم يغضبن عندما قال ذلك الكاتب : إنه يريد التزوج بست زوجات ، وغضب نساؤنا عندما قلنا بزواج أربع فقط ؟... هل المصرية تقدس حقوق المرأة وتحرص على حريتها أكثر من أختها الإنجليزية ؟...

الحكيم : سعة الصدر وضيقه ... ليست ظاهرة مقصورة على المرأة وحدها ... ولكنها ظاهرة شاملة تلاحظ فى حياة كل شعب ، تبعاً لدرجة عراقته فى الحرية والحضارة والقوة ؛ فالشعوب الحرة القوية هى فى الغالب أوسع الشعوب صدراً وعقلا ... إن مسألة الزى الأوربى مثلا . أو لباس الرأس لم تصادف فى اليابان أى صعوبة أو إشكال ... وعلى الرغم من التقاليد اليابانية القديمة ، والوطنية اليابانية العريقة ؛ لم نسمع يابانياً ذكر كلمة « القومية » أو « الوطنية » وهو يرتدى الزى الأوربى ، لأنه لم يخطر قط بباله وهو يلبس « القبعة » أنه سيخلع « قوميته » ... أما الشعوبَ الضعيفة فتتوهم دائماً أن حريتها أو قوميتها أو عقيدتها ستخلع منها وتذهب عنها بلفظ أو بكلمة أو

برداء ؛ فهى تنفعل وترتعد وترتاع لمجرد المظاهر والألفاظ والكلمات ...

الحمار : لا بد لهذا من علاج ... ما علاج ذلك ؟...

الحكيم : حرية الكلام حتى يألف الناس الألفاظ ولا يرتاعوا من الكلمات ... وحرية الفكر والعمل والتصرفات حتى يعتاد كل فرد احترام رأى الآخر وعمله وتصرفه دون أن يكون مضطراً إلى اتباعه ... الحرية هى المنبع الصافى لسعة الصدر والعقل ... الحرية هى الطريق نحو القوة ... الحرية هى انتصار الإنسان على نفسه وعلى كل سخافة إنسانية ... الحرية هى دواء كل شىء .

الحمار : إذن فمن واجبنا أن نتكلم ...

الحكيم : دائماً ... حتى يسقط القلم من بين أصابعنا الميتة ...

الحمار : لا تقل إذن آرائى دائماً خرقاء ...

الحكيم : إن الخرق أو الهراء الذى يخرج من أفواهنا فيه أيضا بعض النفع للناس ... إنه يجعلهم يتسمون سخرية منا على الأقل ... وإذا استطاعوا أن يسخروا فى ابتسامة جميلة لا يعلوها زبد الغضب ، فقد ساروا خطوة نحو الحرية ...

الحمار : كنت تريد لحزبنا مبادئ ... ها هو ذا مبدأ عظيم !...

الحكيم : الحرية الاجتماعية ؟...

الحمار : نعم ... ما قولك ؟...

الحكيم : لا مانع عندى الآن من تأليف الحزب ... اجمع

الحمير !...

الحمار : هنا صعوبة بدت لى الآن !...

الحكيم : ما هى ؟...

الحنار : هل تظن من السهل أن نجد الحمار الذى يعترف بأنــه حمار ؟...

الحكيم : إذن لم يأن الأوان لتأليف هذا الحزب ...

حمارى والذهب

رأيت حمارى ذات يوم مفكراً مهموماً ... فجلست بجواره صامتاً محترماً ما هو فيه ... إلى أن أحس وجودى ... فرفع رأسه نحوى ... وجرى بيننا هذا الحديث :

الحمار : وأخيراً ؟...

الحكيم : وأخيراً ماذا ؟...

الحمار : مستقبلى ... ألم تفكر فى مستقبلى ؟...

الحكيم : عجباً !... لأول مرة أسمع حماراً يتحدث فى مستقبله !...

الحمار : ما وجه العجب ؟... ألست مخلوقاً حياً يعيش خاضعاً لقانون الزمن ؟... أليس لى ماض وحاضر ومستقبل مثل جميع المخلوقات والكائنات ؟... لقد عشت معك حتى الآن عارياً ... لا سرج ذهب ... ولا « رشمة » فضة ... ولا برذعة مرصعة ... ولا ...

الحكيم : شىء جميل !... أهذا ما يشغلك الآن ؟!...

الحمار : هذا ما يشغل اليوم كل إنسان ... إن الناس كلها من حولنا تفكر فى الذهب ... وتعيش للذهب ... وتتنفس بالذهب ... وأنا وأنت قاعدان ننظر إلى القوم من عل

متدثرين فى أسمال أفكارنا وأطمار فلسفتنا ...

الحكيم : اسمع أيها الحمار ... فرغنا من آرائك السياسية ... ومن مبادئ حزب الحمير الذى أشرت بتأليفه ... واليوم تريد أن تفتح لى باب أطماع جديدة ؟!...

الحمار : إنى أفتح لك باب أعمال ... وما دمت أنا الذى يفكر لك ...

الحكيم : فكر لى فى شىء نافع من فضلك !...

الحمار : أنفع من الذهب ؟... يا للعجب !... هنالك لحظات أتساءل فيها أأنا الحمار أم ...

الحكيم : الزم أدبك ... لقد بدأت أضيق بك ذرعاً .. وأشعر أننا أصبحنا غير متفقين فى كثير من الأفكار والمشارب والميول ...

الحمار : بل أنا الذى ضقت وضجرت و « غلبت » !

الحكيم : فلنفترق إذن !... ما الذى يرغمنا على هذه الحياة المشتركة ؟... وعلى هذه الصحبة التى لا أجنى منها غير سوء السمعة !... اذهب إذا شئت ، وابحث لك عن صاحب من ذوى المال — وما أكثرهم اليوم — يغطى عريك المزعوم بالذهب والفضة . وسترى بعد ذلك هل شعرت بالدفء حقاً وعلى ظهرك ذلك الغطاء الثمين ...

الحمار : وهل أنا شاعر بالدفء الآن وأنا عارى الظهر ؟!...

الحكيم : بالطبع ... لو كان لك قلب يعرف حرارة الإيمان ...

الحمار : يا لهذه الكلمات !... إنك تكسونى بالكلمات ...

وتغذينى بالكلمات ... ولا أجد شيئاً عندك غير كلمات ...

الحكيم : ولن تجد عندى شيئاً غيرها ...

الحمار : من سوء حظى !.

الحكيم : حقاً ... ربما كان ذلك من سوء حظك ، لأنك حمار .

الحمار : الزم أدبك ... يكفى أنى تحملت عشرتك طول هذا الزمن ، وأنت لا يتحملك أحد ... ولكن آن الأوان أن أتركك الآن لوحدتك ... لتأكل وتشرب كما تشاء من أفكارك وكلماتك ...

الحكيم : اسمع ... إنى لا أطيق أحداً يحقر الأفكار والكلمات !... إن الكلمات هى التى شيدت العالم ... إن محمداً لم ينشر الإسلام بالذهب ؛ بل بالكلمات ... وإن عيسى لم ينشئ المسيحية بالمال ؛ بل بالكلمات ... الكلمات الصادقة والأفكار العالية ، والمبادئ العظيمة هى وحدها التى قادت الإنسان فى كل أطوار وجوده ، وبنت الأمم والشعوب فى كل أدوار تاريخها ... ما من حركة وطنية أو قومية أو إنسانية قامت أول أمرها على شىء غير المبادئ والكلمات ... وعندما يظهر الذهب آخر الأمر ببريقه ورنينه ، فاعلم أن أوان الانهيار قد آن ... وأن هذا البريق سوف يذيب المبادئ بأشعته الساحرة ... وأن هذا الرنين سوف يصم الآذان بجرسه الفاتن عن سماع الكلمات ...

الحمار : تريد من ذلك أن تقول : إن الذهب عدو المبادئ ؟!...

الحكيم : بلا شك ؛ لأنه هو ذاته ينقلب إلى مبدأ ... مبدأ خطر طاغ متأله ... يُنسى الناس كل المبادئ الأخرى الحقيقية السامية النبيلة ... انظر إلى مجتمعنا اليوم ، وقل لى ما هو المبدأ الغالب المسيطر على كل النفوس ... لقد قلتها أنت نفسك الساعة : إنه الذهب ... لقد تحكم حتى أصبح هو المقياس لقيم الرجال ... ألا تسمع أن كل رجل كفء يتباهى بأن دخله من الشركات كذا ألف ؟!... فإذا طلب لواجب قومى وازن فى الحال بين خسارته المالية هنا وربحه المالى هناك ... وجاراه المجتمع فى حسابه المادى صائحاً :
« لا مصلحة لفلان فى أداء هذا العمل ؛ لأنه سيخسر بعض موارده من كيت وكيت » ..
أما أن يقام وزن للواجب المعنوى فى ذاته ، فهو أمر لم يعد فى بال أحد ... المعنويات والمثل العليا فقدت قيمتها فى سوق الذهب ؛ حتى الأطباء نسوا أحياناً واجبهم الحقيقى ... فأصبح أغلبهم صيارف نقود ، يفخر كل منهم بدخله السنوى ، ولا يفخر بعمله الإنسانى ... والزواج أصبح هو الآخر علاقة مكسب وخسارة فى ميدان المال ... فإذا تزوج أحدهم تساءل المجتمع من الفور عما تملك العروس ؛ لأن هذا هو المبدأ الذى تقوم عليه الآن هذه الشركة « المقدسة » !... ورجال العلم

تركوا علمهم ونظروا إلى الدرجات والمرتبات ؛ فلن تجد فى بلادنا عالما منكباً على عمله تحت « مكرسكوب » ليل نهار ليستكشف جديداً دون أن يكون له مطمع غير أفكاره العلمية ونجاحها ، وخدمة الإنسانية لذاتها ؛ لأن هذه الأفكار والمبادئ ذابت فى جو هذا المجتمع الذهبى ... وانصهرت هذه الكلمة من جديد فى قالب من ذهب ... فإذا الناس ينقلبون تجاراً ... كل فرد فى الأمة يريد أن يكون تاجراً ؛ بل إن لكل شخص اليوم عملين : التجارة وعمل آخر ... كل إنسان الآن تاجر إلى جانب عمله الظاهر ... لأن الذهب أعمى بصائر الناس ولعب بعقولهم وقلوبهم إلى حد أنساهم أنفسهم ومدلول لغتهم ... فغدا للناس قاموس جديد كل كلماته : الربح ... الربح ... الربح ... والمال ... المال ... المال ... والثراء ... الثراء ... الثراء ...

الحمار : إذا كان هذا هو قانون العصر ، فلماذا تريد منى أن أخرج على القانون ؟... إنى كائن عصرى ... من واجبى أن أنطوى تحت لواء « المثل الأعلى » المسيطر فى زمانى ... وما دامت الأفكار والكلمات قد ذهبت بدعتها من عصرنا العملى ... فأنا أخلع عن نفسى تلك البدع القديمة ...

الحكيم : أيها الحمار العصرى .. إن الأفكار والمبادىء ليست من البدع القديمة فى كافة الشعوب ... انظر حولك تجد شعوبا

لم تزل تبذل دماءها سخية من أجل أفكار ومبادئ؟... ما هو الدافع الذى يدفع هؤلاء الملايين من الشباب الناضر إلى الجود بأرواحه ودمائه ؟... أهنالك دافع آخر غير بضع كلمات ؟!... نعم ... بضع كلمات آمن بها فدفع فيها دمه الغالى ... كلا ... إن الأفكار والمبادئ ليست من البدع القديمة إلا فى نظرنا نحن ... إن الكلمات الصادقة العظيمة بخير ... وهى لم تزل حافظة قوتها فى كثير من الأمم والشعوب ... وهى ما برحت جديرة أن تبذل فى سبيلها المهج والأرواح ، قديرة على أن تثير فى القلوب حب التضحية بغير ثمن ...

الحمار : إنك لتدهشنى ... كيف استطاع عصر واحد أن يجمع هذا التناقص ؟... دماء تسيل فى مجرى ... وذهب يجرى فى مجرى آخر ؟!...

الحكيم : لقد اجتمع الضدان فى كل زمان ... منذ فجر الخليقة والعظمة تسير إلى جانب الحقارة ... والسمو إلى جانب التدهور ... والعلو إلى جانب الحضيض ... ولكن العبرة : أى الطريقين تختار لنفسك ولأمتك ؟.

الحمار : إذا سألتنى أن أختار لنفسى فإنى ...

الحكيم : انطق ...

الحمار : دعنى أفكر ... فإنك تعلم أنى لا أعطيك ثمرة تفكيرى إلا بعد ترو وتأمل ...

الحكيم : مجرد التردد فى الاختيار يجعلنى أحكم عليك بـأنك حمارى ...

الحمار : أتظن أنى وحدى ؟!... اطرح سؤالك على النـاس ... وخيِّرهم بين المال والمبادئ ... ثم احص بنفسك عـدد المترددين ...

الحكيم : آه ... والله « غلب حمارى » !...

حمارى والسياسة

جاءنى حمارى أخيراً ثائراً يزبد وينهق ويرعد قائلا :

ـــ اسمع ... إنى مصمم هذه المرة تصميما أكيداً ، ومصر إصراراً تاما ؛ ـــ فإياك أن تثبط عزيمتى أو تحاول منعى ، أو تتدخل فى شئونى ، أو تعرقل مشروعاتى أو تفسد تفكيرى ، أو تبرد حماستى ... أو تـكتم شعورى ، أو تطفئ لهيبى ... أو ...

ـــ سبحان الله ... سبحان الله ... ما هو الموضوع أولا ؟!...

ـــ الموضوع يا سيدى انى قررت نهائيا الاشتغال بالسياسة ...

ـــ على الرحب والسعه ... ومن قال لك إنى معارض ؟...

ـــ أنت موافق إذن على دخولى فى معترك السياسة ؟...

ـــ موافق جداً ...

ـــ هذا هو عين العقل ... الواقع أنها كانت سبة أن يجلس أمثالنا هكذا ينظرون إلى أحداث بلادهم ولا يحركون رأساً ولا ذنباً ... نحن الذين نشأنا فى هذا البلد ، ونعمنا بخيره وخميره ، ورعينا برسيمه ونجيلـه ، وشربنا من ماء نيله ... كان حتما علينا أن يكون لنا يد فى مصيره ... ونحن من أصحاب الفكر الراجح ، ومن قادة الرأى الناضج .

فنظرت إلى حمارى ملياً وقلت :

ــ أنت تتحدث عن نفسك بالطبع !...

فلم يعن بالالتفات إلى ملاحظتى ومضى يقول :

ــ أنها لضريبة يجب أن يؤديها أمثالنا ، فالضرائب الواجب أداؤها للدولة ليست مجرد المال الذى يدفع للمحصلين ، ــ ولكنها المواهب وثمراتها ، والقرائح وآثارها ، وإن نتاج الأذهان لا يقل عن نتاج الألبان ثروة للأمة ، وأنا كما تعلم لست من فصيلة البقر ولا الجاموس حتى أؤدى ضريبتى من نتاج ضرعى .

ــ مفهوم .

ــ إذن كان يجب أن أساهم فى الحركة السياسية بنصيب ... لذلك قررت الانضمام إلى حزب من الأحزاب .

ــ هل وقع اختيارك على حزب من الأحزاب بالذات ؟...

ــ لا ... لم يحدث بعد ... وهذا بالضبط ما جئت أستشيرك فيه ... على أنه توجد صعوبة قد تقف فى سبيلى ... يحسن بى أن أذكرك بها حتى تكون على بينة من الأمر قبل الإدلاء بمشورتك ... تلك الصعوبة التى تخيفنى تتعلق بشخصى ... أعنى :

هل تظن أنى سأجد أحزاباً تقبل أن ينضم إليها حمير .

ــ اطمئن من هذه الجهة ؛ ولا يكن عندك خوف !...

فلمع الفرح والأمل من عينى حمارى وقال :

ــ إذن قد ذللت الصعوبة ... لندخل فى جوهر الموضوع ... ما هو فى نظرك الحزب الذى يتفق مع مبادئى ؟...

ـــ أحب أولا أن أتشرف بمعرفة مبادئك ...

ـــ مبادئ معروفة : العمل لمصلحة الغير وإنكار المصلحة الشخصية ... ذلك هو المأثور عن جنسنا وفصيلتنا منذ ظهرنا على الأرض ... لقد عملنا وكدحنا وجهدنا لما فيه خير الآخرين ... ولم نسأل لأنفسنا أكثر مما نستحق بعرق الجبين ... فلم يعرف عنا أننا سرقنا كما تسرق القطط ... ولا نعمنا بالترف والدلال كما تنعم الخيول ... ولا طمعنا فى أن نعزز ونكرم ونلقم السكر فى أفواهنا ولا نعمل شيئا ؛ بل حياتنا هى العمل للغير ... العمل للنفع العام ... ولا شىء غير ذلك ... حتى لقد جرى الناس على أن ينعتوا من يكد ويجد بأنه « حمار شغل » . فمبادؤنا هى كما ترى أن ننتج وننتج ، ولا نبتغى من وراء إنتاجنا منفعة لذاتنا .

ـــ تلك بالطبع مبادؤك باعتبارك حماراً ... ولكنك تريد على ما فهمت الانضمام إلى حزب من أحزاب البشر ؟!...

ـــ نعم ... وهل يقتضى ذلك أن أغير هذه المبادئ ؟!...

ـــ تغيير طفيف ... كلمة واحدة ضعها خلف عبارتك ليكون مبدؤك سليما فى عرف البشر ... ضع كلمة « لا » أى : لا إنتاج للغير ، ولا إنكار للذات .

ـــ عجباً ... وما فائدة الحزب السياسى إذن ؟...

ـــ فائدته نفع ذاته ... أليست هذه فائدة ؟...

ـــ والآخرين ؟...

ـــ أى آخرين ؟...

ـــ الفصيلة ، أو الجنس أو الأمة ، أو الدولة أو غير ذلك من الأسماء التى تطلق على المجموع ؟...

ـــ لا تنس أننا نتكلم الآن فى محيط السياسة ... والسياسة هى اللباقة أو المهارة ، أو الخفة أو البراعة ... أو الكياسة التى تستطيع بها أن تسحب خاتم السلطة من إصبع منافسك وتضعه فى إصبعك إلى أن يغافلك المنافس وينتهز منك فرصة فيسحب بدوره الخاتم من إصبعك ويضعه فى إصبعه ... وهكذا دواليك ... حتى يتعب أحدكما من هذه اللعبة اللذيذة ، وقلما يتعب ... فالمسألة إذن لا علاقة لها بإنتاج ولا عدم إنتاج ...

ـــ والشعب ؟... أهو قانع بمجرد المشاهدة ؟...

ـــ ومن قال لك إنه قانع ؟... لقد دخل هو أيضاً حلبة اللعب ... إن الساسة علموه كيف يتذوق تلك اللعبة .. فأصبح أكثر منهم تهافتاً عليها واهتماماً بها ... وأشد شوقاً إلى رؤية الخاتم ينتقل من يد إلى يد ... ولا يطيق أن يصبر وقتاً طويلا عليه وهو فى إصبع واحدة ... شأن المقامرين الذين لا يطيقون رؤية كرة « الروليت » تقف دائماً على رقم واحد بلا تغيير ... فهم يهللون ويهتفون للكرة كلما وقفت على رقم جديد ... ويفرح الرابح الفرح والترح بالتناوب ، وهكذا دواليك ...

ـــ والشعب مسرور بذلك ؟...

ـــ كل السرور ... ولقد آنست منذ زمن الحكوماتُ هذا الميل فيه ... فعملت على تعميم هذه المتعة بين كل الطبقات ... وتيسير اشتراك كل فرد فى هذه اللعبة ، فجرت على سنة بديعة : وهى أن تأتى كل حكومة ومعها برلمانها وانتخاباتها ... أى « عدة الروليت » الخاصة بها ... فينصب المولد ، وتزدحم الجموع ، وتنتقل النقود من جيب إلى جيب ... ويعلو

الصياح من فم إلى فم وتمد الموائد وتقام الولائم ... ويكثر الطعام والشراب ، والبذل والعطاء ، ويغمر فى جو صاخب كجو الأعياد ردحاً من الزمن ينسيه شقاءه ، ويلهيه عن مصيره ...

ــ هذا شيء جميل .

ــ جداً ... على أن هذا كله كان يحدث فى الماضى ... أما الآن فنحن أمام ظاهرة جديدة ... إن ثراء الحرب قد غير عقلية الناس فيما يظهر ... ما من أحد يريد أن يخسر ... لذلك كثر اللعب فى عين الوقت على رقمين أو أكثر ... هذا بين اللاعبين على مائدة السياسة من أعضاء البرلمانات والأحزاب ... وقد انتقلت العدوى إلى الشعب ، فجعل هو الآخر مبدأه ذلك المثل الشعبى القديم :

« من تزوج أمى قلت له يا عمى »

والأم هنا هى الحكومة أو السلطة ... لذلك لا نستغرب خروج الناس أفواجاً من الحزب الذى خلا من السلطان ، ليدخلوا أفواجاً فى الحزب الذى لمع فيه الصولجان ، كأنهم يخرجون من دار « سينما » تعطلت فيها الرواية ، ليدخلوا المسرح الآخر الذى أضيء بأنوار الرواية الجديدة ... ما دام هذا هو الاتجاه العام فنحن سائرون بدون أى مجهود نحو توحيد الأحزاب .

ــ إذن فأنت لا ترى لى أن أنضم إلى حزب بالذات ؟...

ــ انضم كما تشاء ، ولكن على المبدأ الشعبى :

« من تزوج أمى ... »

ــ بالضبط .

ــ ولكن ...

— لا تقل ولكن ... ولا تكن حماراً ... إن عناد الحمير وصلابة رؤوسها لا تنفع فى السياسة ... واليوم كل شىء لين مرن ، لا فى المبادئ وحدها ، ولا فى المحيط السياسى وحده ، بل فى كل محيط ... حتى بين الموظفين المسؤولين عن تنفيذ القوانين ... ألم تسمع بخبر ذلك المأمور الذى حبس مجرماً من مجرمى التموين تطبيقاً للقانون ، فاتصل به أحد ذوى النفوذ وأمره أن يفرج عنه فوراً ... فأخرجه من الحبس بعد الصفع والإهانة ... وأجلسه فى مكتبه ... ووقف هو بين يديه قائلا :

« والله لا يصح أن تنصرف عنا قبل أن تشرب القهوة !... »

— يا للعجب !...

— لباقة ... أليست لباقة ؟...

— واأسفاه !... إنى لا أملك هذه اللباقة ...

— إذن ... اجلس حيث أنت ... ولا تطمع فى الاشتغال بسياسة أو إدارة !...

— بينى وبينك ... ألا تظن أن هذا الحال فى مجتمعكم يجب أن يصلح ؟...

— من فضلك لا تلق علىّ أسئلة عويصة ... لأن ذلك سيجرنا إلى التساؤل : من الذى يصلّح ؟... أهو المجتمع الذى يصلح الحكومة ، أم الحكومة هى التى تصلح المجتمع ؟ وهذا لا أجيب عنه إلا إذا أجبتنى أنت : هل البيضة من الفرخة أو الفرخة من البيضة ؟...

— دعك من السفسطة !... من يدرى ؟ ربما استطعت أنا أن أصلح ... إن اشتغالى بالسياسة على مبادئ قد يعطى على كل حال خير مثل من أمثلة ...

ـــ من أمثلة الحمق والقناعة والغفلة الجديرة بحمار... هذا ما سيقال عنك وعن مبادئك ...

ـــ فليقولوا ما شاءوا ...

ـــ إني أعلم منذ الآن ما سوف يحدث .. فاجلس حيث أنت ، واسمع نصيحتي !... إنك لن تؤثر فيهم بمبادئك ... ولكنهم هم الذين سيؤثرون فيك بمبادئهم ... ولن يمضي وقت طويل حتى ترى أنك أنت لم تعد حماراً .

حماری والطالبة

قال حماری يوماً : إنه يلحظ أنی بدأت أتبرم بمؤنة أكله وهو لا يعمل شيئاً غير إبداء الآراء ، فاقترح علیّ أن يقوم لی بوظيفة « السكرتير » الخاص أحياناً ... فقبلت ... وجاءنی أخيراً يقول : إن بالباب فتاة من طالبات الجامعة تريد مقابلتی ... فقلت له : إن فكرتی عن الجامعة المصرية وطلبتها وطالباتها غامضة كل الغموض . فأنا قد تخرجت فی مدرسة الحقوق القديمة ، قبل أن تنشأ الجامعة فلم أحضر عهود النظم الجامعية فی بلادنا ، ولم أشهد ذلك الحدث الخطير فی تاريخ الشرق : وهو جلوس الفتی والفتاة معاً تحت شجرة العلم المورقة ... فأجابنی بأنها إذن فرصة سانحة لمعرفة ما لم أعرف ... فقلت له بعد تردد : « أدخل الطالبة علی شرط ... » فسأل عن الشرط . فأجبته : هو أن لا يتدخل فی حديثی معها ، لا بصفته حماراً ، ولا سكرتيراً ؛ بل ينتحی جانباً ولا ينبس بحرف خشية أن يلفظ كلمة من كلماته لی تصغرنی فی عينيها ... وكان شهماً فقبل ... ومضی فأحضر الفتاة وأجلسها أمامی ، وقبع هو فی ركن بعيد ... وتركنا نتبادل هذا الحديث :

قلت لها :

— اسمحی لی أولا أن أدعوك حواء ...

فقالت من فورها :

ـــ ولكن اسمى الحقيقى ...

ـــ لا شأن لى باسمك الحقيقى ... أنت فى نظرى الآن تمثلين كل طالبات الجامعة ، وعلى هذا الاعتبار أوجه إليك الكلام ... لقد دخلت يا حواء جنة العلم لتقطفى إلى جانب الرجل أشهى ثمار الفكر !..

ـــ أوَلسنا مساويات للرجل فى كل شيء ؟...

ـــ لست أدرى ... إنما الذى أريد أن تعرفيه هو : أنك حواء فى جنة ...

ـــ الأورمان بالجيزة !...

ـــ إنى لا أمزح الآن ؛ لأن كلامى يرمى إلى مغزى يجب إدراكه حتى لا يتكرر وقوعك فى عين الغلطة ...

ـــ أى غلطة ؟...

ـــ إنى أخشى دائماً دخول حواء الجنة ... أى جنة !...

ـــ إن الجنة لا تسمى جنة إذا لم تكن فيها حواء ... لا توجد جنة بغير حواء !...

ـــ هذا صحيح للأسف ... لكن ...

ـــ قل لى بالصراحة : ألا تأسف على أنك لم تحضر عهد الجامعة الحالى ؟...

ـــ يخيل إلى أنى لو كنت حضرت جامعة اليوم لما نجحت ولا أفلحت !...

ـــ ما معنى ذلك ؟...

ـــ لا تسأليني إيضاحا ولا بياناً ... افهمى هذا القول على الوجه الذى يروق لك !!...

— حذار أن تشك فى مقدار فهمى !... إنى أفهم جيداً ...

— ذلك أخشى ما كنت أخشاه ... لا تخرّج الجامعة مثيلات لـ « باحثة البادية » ولا قرينات لـ « مى » ... ولكنها تخرج شيطانات صغيرات ؛ قد أكسبهن الخروج إلى المجتمع ، والاختلاط بالرجال ، والاتصال بذوى الأفهام شيئاً كثيراً من الفطنة والذكاء ...

— ولماذا تخشى ذلك ؟...

— لأن الذكاء سلاح خطر ، لا ينبغى أن يوضع فى يدى امرأة إلا بعد إعداد روحى طويل ...

— ولماذا لا تقول ذلك أيضاً بالنسبة إلى الرجل ؟...

— الرجل !... الرجل ... دائماً الرجل !... اتركى الرجل وشأنه ... نحن الآن نتكلم فى المرأة ...

— آه ... يا للمرأة ... إذا ابتليت بالجهل فهى مخلوق تافه ... وإذا منحت الذكاء فهى مخلوق خطر !...

— من غير شك ... تأملى أمر حواء الأخرى الحقيقية ... لقد كفى أن يلقنها « إبليس » شيئاً من الإدراك ، وأن يلقى فى روعها قبساً من الذكاء ؛ لتخرج على الفور آدم من جنة عدن !...

— لست أدرى ماذا أجيب دفعاً لهذا الاتهام الشنيع ... إنكم معشر الرجال لتستخدمون كل ذكائكم فى إلقاء مسئولية الأخطاء العظمى على كاهل المرأة !...

— هذا على كل حال استخدام لا ضرر فيه ...

— لا ضرر فى أن تلصق بنا نحن المخازى والأباطيل !... أرأيتم كيف تضعون دائماً بين مشاعركم ومشاعرنا ، ومصالحكم ومصالحنا ،

وشؤونكم وشؤوننا هذا السد المنيع !... حقاً !... إن المرأة والرجل مخلوقان مختلفان منفصلان ... وأنتم الذين أردتم ذلك ...

— الطبيعة هى التى أرادت ذلك ... ولكن المرأة لا تريد أن تكف عن تكذيب الطبيعة والصراخ فى وجهها :

« لا فاصل بينى وبين الرجل ... إنى مساوية للرجل فى كل شيء ...

— لا تتهموا الطبيعة أيضاً ظلماً وباطلا ... إنها هى التى شاءت ألاّ يكون بيننا فرق من تلك الفروق التى تصطنعونها ... تذكر يوم كنا فى الجنة ... أعنى حواء الأخرى وآدم الآخر ... ماذا كانا يعملان طول النهار ؟... ماذا كانت تصنع حواء ؟... أظنك لن تزعم أنها كانت تصنع لآدم صينية بطاطس فى الفرن ، لقد كانا متساويين فى كل شيء .. فى نوع الحياة ، فى نوع الواجبات والحقوق ، والمشاغل والأفكار ... كل منهما كان يقطف فاكهته بنفسه لنفسه ... وكل منهما كان يفعل ما يفعل الآخر ، كأنهما زميلان ندان ... إنى أتحداك الآن أن تذكر لى عملا واحداً انفردت به حواء دون آدم أيام كانا فى الجنة !... تكلم ... لماذا لزمت الصمت ؟... اذكر مثلا واحداً فقط ؟...

— سبحان الله !... كيف تريدين منى أن أعرف نظام الحياة الزوجية فى الجنة ؟... من أرانى كيف كان توزيع العمل فى أسرة آدم وزوجته ؟ تلك مسألة فيما أظن لا يعرفها غيرهما ... ومن يدرى ... ربما كانت حواء هى التى كان عليها هناك أن تقطف الفاكهة وتغسلها جيداً فى نهر الكوثر وتعد المائدة لآدم ...

— أبداً ... أبداً ... أبداً ... من أين أتيت بهذا الكلام ... هذا خيالك باعتبارك رجلا !...

— إنى أتحداك أن تذكرى من الذى كان « يفصل »من ورق شجرة التين الأثواب التى كان يستر بها آدم بعض أجزاء بدنه !.. إنى أراهن على أن حواء هى التى كانت تقوم على الأقل بمهمة التفصيل والتطريز ...

— آه معشر الرجال !... ما أشد رغبتكم فى أن تجعلوا منا طاهيات لكم وخادمات !...

— فى هذا تشريف لقدرِكن ...

— ماذا تقول ؟... ماذا تقول ؟..

— أقول : إن مجد المرأة الخالدة هو فى أن القدر قد كتب على الرجل أن ينحنى ليطعم من راحتيها !... أنت التى تمدين الطفل ، والشاب ، والرجل بالغذاء ؛ أى مادة الحياة ... أنت التى جعلت منك الأساطير والديانات القديمة صورة لآلهات الخصب ، ورمزا لفكرة « الحياة » !...

— لن تخدعنا بهذا الكلام المنمق... نحن نرفض هذه المهمة الصغيرة... مهمة إطعامكم ؛ لأننا نحس فى أنفسنا القوة والقدرة والكفاية للقيام فى معترك الحياة بمهام أخطر من ذلك وأعظم !...

— مهام أخطر وأعظم ؟... مثل ماذا ؟...

— نحن نتعلم فى الجامعة مثلما تتعلمون ، ونتخرج فيها بشهادات فى الحقوق ، والطب ، والآداب ، والعلوم ؛ مثلكم تماماً ، وأحياناً كثيرة نسبقكم ونبزكم فى النبوغ ، فلماذا لا يكون لنا مثل وظائفكم الهامة فى المجتمع ؟...

— ما هو أقصى ما تطمعن فيه من تلك الوظائف الهامة ؟...

— لماذا لا يكون لنا مثلا حق الانتخاب لعضوية البرلمان ؟... لماذا لا تكون منا سياسيات ومستشارات ووزيرات ؟... لم لا ؟.

— واأسفاه !... أهذا أبعد وأرفع وأعلى ما تنظرن إليه ؟.

— و لم لا ؟... و لم لا ...

— أنا شخصياً لا مانع عندى مطلقاً من أن تهبطن إلى هذا المصير !... ولكن بقية الرجال منذ فجر التاريخ قد خصُّوكن بمنصب يحسبون أنه أسمى من كل منصب !...

— أهناك منصب أسمى من المستشارة والوزيرة ؟...

— نعم ... الإلهة والملكة !... ما أحمق الرجال !... طالعى جيداً أيتها الآنسة كتب التاريخ ؛ بل تأملى تاريخ أى رجل : إن الحطاب فى الغابة يكد كالعبد الرقيق طول نهاره ليعود عند الأصيل إلى ملكة وإلهة فى داره ، يصبح عند أقدامها أجر جهاده ... وإن « نابليون » بعد كل معركة كان يرسل إلى أعتاب « جوزفين » أخبار انتصاراته كأنها القرابين ... وإن كل عظيم إنما يعمل ويجهد ، ويناضل وينهزم ويفوز ، ووراء خاطره شبح امرأة موجودة أو غير موجودة : أم ، أو زوجة ، أو صديقة ، يهدى إليها آخر الأمر ثمرات نضاله ...

ما كفاح الرجل إلا قربان للمرأة ... إن حواء يوم أخرجت آدم من الجنة ، إنما أخرجته لتسود عليه ... لقد قلت لى أنت : إن المساواة بينهما فى الجنة كانت تامة ؛ فلأصدقك ... ولكن المرأة لا تريد المساواة ... إنها تريد السيادة ... وهى فى الجنة مستحيلة ... فكان عليها إذن أن تخرج برجلها إلى الأرض والحياة والكفاح ، لتجلس هى على العرش وتجعله عندها عبداً رقا ؛ يكدح من أجل لقمة من يديها ... حواء هى دائماً حواء ... لستن أنتن الطاهيات الخادمات ؛ بل نحن معشر الرجال الخدم والعبيد ، نُشقى حياتنا من أجل لقمة من أيديكن ... ومع ذلك لا نسمع

منكن غير المن والترفع .

ـــ ها ... ها ... ها !...

ـــ تضحكين؟!...

ـــ حقاً ... أنت أنت لا تتغير ... ترفعنا وتخفضنا كما تشاء ، وتجد مع ذلك الأسباب والحجج التى يصعب دفعها !...

ـــ لو عرفتِ الحقيقة لأدركت أنى أريد أن أحتفظ لكن دائماً بمنصبكن السامى الخطير ، منصب الإلهة والملكة ... لا حباً لسواد عيونكن ؛ بل لأنى أعلم أن الرجال لا يستطيعون أن يعيشوا ، وأن ينتجوا بغير أن تحكمهم الأيدى الناعمة !... إنى لا أنظر إلى مصيركن ؛ إنما أخشى على مصير الرجال إذا اخشوشنت أيديكن ؛ ففقدت سحرها الذى يدفعهم إلى الكفاح والنضال والعظمة ... إنى أريد أن أحافظ على « الإلهة والملكة » فيكن ؛ كما كان العباد الوثنيون يحافظون على أصنامهم ؛ لذلك أخشى عليكن من تأثير الجامعة ... جامعة الرجال ... التى قد تصب عقولكن فى قالب عقل الرجال ، وتسلب « معاملها » الكيميائية من أيديكن النعومة اللازمة لأيدى الإلهات والملكات ... أنت الآن يا حواء فى « الجامعة » تعودين إلى المساواة بالرجل كما كانت حواء الأولى فى « الجنة » ... فأين اليوم « إبليس » الذى يغريك بالخروج منها ، كى تستعيدى فى يديك السيادة ؟...

ـــ لا تؤاخذنى !... يا للهول !... إنى ألمح فى عينيك بريق نظرات إبليس ؟... وانطلقت الفتاة خارجة وولت هاربة ...

حماری والقاضية

وذكرنى حمارى ذات ليلة بعهد اشتغالى فى القضاء ، ولعله أراد — فيما يظهر — أن أسليه وأرفه عنه ، فطلب إلىّ أن أتصور جلسة قضائية فى محكمة ترأسها امرأة ، لما يتوهمه من رأيى فى المرأة ... فلم يستطع ذهنى أن يتخيل ذلك المنظر ... وتركته آخر الليل ، وذهبت إلى فراشى ... ونمت نوماً عميقاً ... فإذا بى أرى حلماً مزعجاً لو نجحت فى وصفه كما وقع ، لأغنانى عن تخيل ما كان قد طلب إلىّ :

رأيت فى الحلم أنى رجل متزوج !! يا للكارثة ... ومتزوج بمن ؟... بسيدة تشتغل بوظيفة فى القضاء ... إنها قاضية فى محكمة مصر الابتدائية الأهلية ... وخيل إلىّ — فى الرؤيا — أنه قد مضت سنوات وأنا رازح فى قيود هذه الزوجية الطريفة ، راض بما كتب علىّ ، قانع بما قسم لى ... لا أجد غرابة ولا غضاضة فى ذلك اللون من الحياة ... وتلك ولا شك من خدع الأحلام ، فهى تجتاز بنا الأعوام فى شبه طرفة عين ، وتضغط الوقائع الكبار والأحداث الجسام ، وتضعها فى شبه برشامة يجرعها النائم ؛ فيحس نتائج ما حدث كأنه أمر طبيعى عرض له فى الحاضر القريب أو الماضى السحيق .

على أن الأغرب من ذلك أن أجد فى الرؤيا أنى أب لطفلة فى العام الثالث من عمرها ... و ، أن أحس نحوها كل عواطف الأبوة ... عجباً !.

... كيف استطاع الحلم أن يضع فى قلبى مشاعر لا أعرفها و لم أحسها قط ؟!.

كانت الطفلة فى ذلك اليوم مع مربيتها . وكنت أنا بجوارها ألاعبها ، وخيل إلىّ أنى قد جعلتها تمتطى كتفى ، وصرت أركض بها مثل الحصان ، وهى تضحك تلك الضحكات الصغيرة البريئة ، ثم دقت الساعة الثانية ... فأحست الطفلة الجوع ، وبدأت تتململ ثم قالت : « ماما » ... فتنبهت إلى أن السيدة حرمى لم تعد إلى المنزل بعد ... فعلينا إذن أن نتناول الطعام أنا وابنتى وحدنا ... فأنا أيضاً أشعر بجوع ، ولكن ماذا تصنع زوجتى فى المحكمة حتى الآن ؟... ألقيت على نفسى هذا السؤال مرة أو مرتين ... ودفعنى الفضول وحب الاستطلاع إلى أن أتحرى الجواب ... فتركت الطفلة تتغذى مع المربية ، وأسرعت أنا فى سيارة إلى محكمة مصر الأهلية ... سألت عن الست ... فقيل لى إنها فى الجلسة ، فهى منتدبة قاضية للإحالة ، وهى تنظر فى إحدى الجنايات الهامة فدخلت قاعة الجلسة ، وجلست فى مقاعد الحضور المحتشدين ، واندسست بين جموع المشاهدين ، فشاهدت الآتى :

زوجتى المصونة ، والجوهرة المكنونة ، متصدرة القاعة على المنصة ، متوشحة الوسام الأحمر فوق رداء أسود حقيقة ، لعله يحل رسمياً بالنسبة لهن محل الردنجوت أو « الاسطنبولينه » ، ولكن يظهر أنها حلت بعض أزراره عمداً ، فكشف من تحته عن ثوبها « الكريب دى شين » الوردى الذى تقاضتنى ثمن تفصيله منذ أيام ... وإذا هو يتسق اتساقاً جميلا مع لون الوسام وهلاله ونجومه النحاسية اللامعة ... و لم يكن من اللائق طبعاً أن يبدو على شعر حضرة القاضية أو على وجهها وشفتيها آثار « التواليت »

بشكل يلفت النظر ، ولكنها مع ذلك لم تنس قط أن تمر مر الكرام على ذلك الوجه بقليل من « البودرة » ، ولا أن تخط بخفة على ذلك الفم خطاً أحمر يستطيع قراءته ذوو الأفهام ؛ فالمرأة هى المرأة دائماً ؛ سواء ألبست النقاب والخلخال ، أو الوسام وخوذة القتال ، وكانت الإجراءات الأولى للقضية قد انتهت بوصولى ، ولم يبق إلا دفاع المحامى ... فقد أبصرت القاضية الفاضلة مستغرقة كل الاستغراق فى الإصغاء إلى مرافعته الحارة ، وكان ذلك المحامى شاباً وسيما من شبان اليوم ... الذين يحسنون تلميع شعورهم وتنعيم وجوههم وتنغيم أصواتهم ...

فوقف متجهاً بكل جوارحه نحو الست زوجتى ، وكأنه يضن حتى بمجرد الالتفات إلى الآنسة « وكيلة النيابة » بوسامها الأخضر الأحمر ، وحركاتها العصبية الممزوجة بالدلع والدلال ... وقد كانت حضرتها على لطف إشارتها ورقة إيماءتها تعوزها الملاحة التى تفتن مثل ذلك الشاب .. أما حرمنا ؛ فمن سوء حظى كانت فيما يظهر أجمل من زميلتها قليلا ، فجذبت إليها وحدها عيون المحامى وعنايته واهتمامه وربما قلبه أيضاً وعقله وباله وبلياله ... وجعل هذا المفتون المأفون يتمايل تارة ، ويرتب بأنامله نظام شعره تارة أخرى ... ويقول :

ـــ يا حضرة الرئيسة ... هذه قضية الحب ... قضية القلب ... هذه القضية المطروحة بين يديك هى قضية متهمة تعسة مسكينة ، لم ترتكب شيئاً غير الإصغاء إلى صوت قلبها .. ومتى كان فى الاستماع إلى نداء القلب جريمة ؟... يتهمون موكلتى بأنها قتلت زوجها بالسم ؛ لتفر مع حبيبها ... هذا صحيح ... وقد اعترفت فى محضر التحقيق ... نعم ... لقد لجأت إلى القتل ... ولكن فلنسأل ... لماذا فعلت ذلك ؟... هذه

المتهمة خدعها أهلها فزوجوها من رجل أقنعوها بالزواج منه ؛ لأنهم وجدوه القرين الكفء ... وكم من الفتيات يغريهن أهلهن بأن يتزوجن رجلا لا يحببنه ، لماله أو جاهه أو شهرته فيرضين مدفوعات بهذا الإغراء ... ثم تمر الأيام وينطفئ البهرج الخادع ... وإذا الشقاء يخيم كالليل البهيم على قلوب هاته الزوجات التعسات ... هذا ما حدث لهذه المتهمة ... اقترنت بزوجها المجنى عليه ، وعاشت معه أعواما أنجبت منه خلالها طفلة جميلة ... ولكنها مع ذلك لم تحس لهيب ذلك الحب الجارف العارم ، والغرام المحرق الضارم الذى قرأته فى القصص وشاهدته فى السينما ... يا للهول ... أسيقدر لها أن تعيش حياتها دون أن تعرف هذا الهناء أو تبصر لونه ؟... هذا حقها ... هذا حق كل فتاة ... فلكل فتاة الحق فى الحب ... فى هذا اللون من الحب ... يجب أن تصادفه ولو مرة فى حياتها ... وكان كل ذنب موكلتى ... وكل جريمتها أنها صادفت أخيراً هذا الحظ ونالت هذا الحق ... كان ذلك فى يوم هيأه القدر بدقة وحكمة وتدبير ... فقد وجدت ضالتها فى صورة شاب جميل ، تبعها يوماً فى الطريق من محل شيكوريل إلى منزلها ، وتمكن من معرفة رقم تليفونها ... فوالاها بعنايته ، وبثها هواه ولوعته ... وسألها أن تصغى إلى ترانيم الغرام ونداء الهيام ، وتترك منزل الزوجية وتتبعه إلى الفردوس المفقود والنعيم المنشود ... ماذا تصنع هذه الزوجة فى هذا الموقف يا سيدتى الرئيسة ... من حسن الحظ أن القاضية لهذه المتهمة امرأة مثلها تستطيع أن تفهمها ... فما من أحد يفهم قلب المرأة العاشقة غير المرأة .

ولم تنطق حضرة الرئيسة ... ولكنها تنهدت ، وأشارت برأسها إشارة معناها أنها فهمت !!... واستمر المحامى الرشيق يقول :

— كانت أمام موكلتى عقدة يجب حلها ، وعقبة فى سبيل هنائها يجب تذليلها .. هى زوجها ... إنها كانت تعلم أن هذا الزوج يعبدها عبادة ... وأنه إذا علم بفرارها انتحر لا محالة ... وقتل نفسه أشنع قتلة ... فقد جاهر لها أنها هى كل شىء فى حياته ، فإذا خرجت من هذه الحياة ؛ فأيسر من ذلك عنده خروج روحه من بدنه ، فما العمل ؟... أتتركه يضع السكين فى فؤاده ؟...

أتدعه يتألم ذلك الألم المادى من جراحه ، والمعنوى من خيبة أمله فيها ؟... كلا ... إنها زوجة طيبة النفس رقيقة الحاشية ، حية الضمير... كان يجب عليها أن تؤدى واجبها المقدس نحو زوجها الأمين ... وقد فعلت ... نعم لقد اختارت له — ووفقت فى الاختيار — نوع الموتة الهينة اللينة التى لا تشعره بعذاب ولا ألم .

وتهدج صوت المحامى فى هذه العبارة ، وتوقف عن الكلام خشية أن تخنقه العبرات ، ونظر إلى رئيسة الجلسة المطرقة الساهمة ... فإذا بها — لدهشتى — قد بلغ بها التأثر ... والتفتت إلى وكيلة النيابة قائلة فى صوت خافت :

— معاكى منديل يا نبوية ... نسيت منديلى فى أودة المداولة .

وانطلق محامى المتهمة ماضياً فى مرافعته قبل أن يبرد الموقف فصاح :

— نعم يا حضرة الرئيسة ... لقد قامت موكلتى بواجبها كزوجة أمينة وفية لزوجها ... هذا السم الذى لا يحدث آلاما قبل الوفاة ، ولا يحس من يتعاطاه شيئاً سوى إغماء بسيط يعقبه نوم هادئ طويل عميق ؛ كأنه نوم الأطفال ...

فقاطعته القاضية الكريمة سائلة :

ــ من فضلك السيم ده اسمه إيه !...

فلم أطق صبراً ، و لم أستطع احتمالا و لا انتظاراً لنهاية القضية ولا لشيء آخر بعد ذلك ... فنهضت مرتاعا من مقعدى ، وخرجت من قاعة الجلسة وأنا أقول :

ــ قسما بالله العظيم ما أتغدى فى بيتنا بعد اليوم ...

وأعمانى الذعر ، فعثرت قدمى بعتبة باب الجلسة فهويت على الأرض ، وعندئذ فتحت عينى ؛ فإذا أنا متدحرج من السرير على أرض الحجرة ... فقمت أفرك أجفانى وأقول :

« الحمد لله أنى سليم معافى و لم أتزوج قط ... ولن أتزوج أبداً ... حتى إذا اختارنى ربى إلى جواره وأدخلى الجنة ، فسوف أطلب إليه أن يكون بينى وبين الحور سور » !...

حمارى وحزب النساء

قال لى حمارى وهو يلمح بعينه فى إحدى الصحف خبر تأليف حزب نسائى ...

ــ ما رأيك فى الحزب النسائى ؟... طبعاً لا بد أن يكون لك فيه رأى ... أليس كذلك ؟...

فأجبته قائلا :

ــ أمن الطبيعى فى نظرك أن يكون لى فيه رأى ؟... لا بأس ليكن الأمر كذلك ، وأظنه طبيعياً أيضاً أن يكون هذا الرأى فى جانب حزب النساء ... ولم لا ؟... إلى رجل مظلوم ... ولسوف يؤلف عنى كتاب بعد موتى : « توفيق المفترى عليه » ... الواقع أنى دائماً أتمنى للمرأة تقدما ... ولا أختلف معها إلا فى معنى كلمة « التقدم » فهى تفهمها على أنها الجرى فى إثر الرجل واللحاق به ... وأنا على العكس : أرى الرجل هو الذى يجرى وراء المرأة ... فالمسألة فيما يظهر لا تعدو مجرد خلاف فى الرؤية والنظر ... وحتى الآن لم يفتح الله على الجنس البشرى بواحد ذى عينين سليمتين ، ليبصر لنا أيهما هو الذى يسير خلف الآخر ؟!...

ولأسلم على كل حال بنظرية المرأة إثباتاً لحسن نيتى ... ولنقل إن الرجل هو المتقدم ، وإنها هى المتخلفة ... وتفانياً منى فى إرضائها أقول : إن هذا التخلف يبدأ منذ نصف مليون سنة ، أى من عصر الكهوف ، يوم

كان الإنسان الأول يعيش حياة الصيد فى الغابات تاركا أنثاه فى كهفها تعنى بصغارها وتهيئ مما صاد لها ولأطفاله طعامهم وطعامها ... لقد كان هذا التوزيع فى العمل بأمر من الطبيعة التى زودت الرجل بعضلات قوية للكفاح خارج الكهف ، وحبت الأنثى بالوداعة والرحمة والحنان اللازم للأمومة داخل العش ...

ومرت آلاف الأعوام ، وهذا التقسيم فى أعمال الجنسين قائم — وإن كان الصيد قد تغير — حتى اتخذ اليوم ألواناً جديدة مثل المال والجاه ، والمنصب ، والنفوذ ... إلخ . وتبدلت كذلك الأسلحة ، فذهبت القوس والنشاب ، وحل محلها سلاح آخر معنوى اجتماعى ذهنى تصاد به كل تلك الأغراض ، مما اصطلحنا على تسميته بـ « العلم والخبرة ، والقدرة ، والسياسة » إلخ ... كذلك تغير كهف المرأة فأصبح « شقة » نظيفة أو « فيلا » مريحة ، تخطر فيها بأثوابها الأنيقة وزينتها البديعة ، وتعنى بتنشئة أولادها على قواعد الصحة الجثمانية والخلقية ...

لم تستطع إذن خمسمائة ألف من الأعوام أن تحدث من التغيير فى أوضاع الجنسين أكثر من ذلك ... ولقد لبث لكل منهما عالمه المنفصل ، ومجال نشاطه المستقل طوال هذا القدر الهائل من الأحقاب ... الرجل له الخارج ، والمرأة لها الداخل ... وأظن أن نصف مليون سنة مدة كافية لأن تكيف طبيعة الإنسان ، فإذا راق للمرأة اليوم أن تغير طبيعتها ، وحلا فى عينها أن تعمل ما يعمله الرجل ، فتشتغل بأعمال الخارج ، وتخوض بنفسها غمار الكفاح فى ميادين السياسة والجاه والسلطان ، فذلك موكول إليها ... وكلنا نرحب به ؛ بل إنى أناشدها أن تسرع منذ الآن ... ولتبدأ من البداية فى الحال ، حتى لا تضيع وقتاً على من سوف

يأتى فى المستقبل من أجيال .

والاقتراح العملى لتحقيق ذلك ، هو أن نبادر من فورنا فنرسل حضرات سيدات الحزب النسائى إلى مجتمع فطرى ، يشابه مجتمع الإنسان الأول ... وأظننا نجد مثل هذا المجتمع الآن فى غابات أواسط أفريقيا ... هناك تترك البعثة الكريمة لتضع أساس الحياة المنشودة ... وعليها أن تعيد توزيع العمل من جديد على الوضع العكسى ، فتتولى هى القيام بأعمال الصيد فى الغابات ... وتدع للرجل العمل داخل الكهوف ... ولننتظر نصف مليون سنة أخرى ، وهذا ليس بكثير ، حتى تتوالد أجيال جديدة من النساء المكافحات يرفعن رؤوس أجدادهن ، ويسطرن بمداد الفخار مبادىء الحزب النسائى الموقر !...

* * *

على أنى أخشى أن يرى الحزب النسائى أن اقتراحى هذا غير عملى ... فمن الواجب إذن أن نفكر فى حل آخر :

قد تقول لى بعض النساء المحترمات :

ــ لماذا لا نجرب ونسمح لهن منذ الآن بمقاعد فى البرلمان ؟... أنا شخصياً لا أرى مانعاً من إعطاء المرأة حق التمثيل السياسى فى مجلس النواب « بالطبع جميع النساء متنازلات مقدماً عن حقهن فى مجلس الشيوخ » ، وزيادة فى تسهيل الأمر على إخواننا المحافظين المتعنتين من الرجال أقترح الأخذ بمبدأ أن « للذكر مثل حظ الأنثيين » ، فيكون لكل امرأتين صوت واحد ... : وأرجو من السيدات أن يتساهلن فيقبلن هذا الشرط مؤقتاً إرضاء لغرور الرجال ... وإنى على أتم استعداد لمعاونة المرأة والمطالبة معها بهذا الحق على هذا الأساس ... إلا إذا اعترض حزبهن الموقر بأن هذا الرأى

أيضاً غير عملى ، بحجة أن اشتراط صوت لكل امرأتين يتطلب وجود امرأتين فى البرلمان يمكن أن تتفقا على رأى واحد ، وهذا بعيد الاحتمال .

مهما يكن من أمر ، فإنى راغب من كل قلبى فى منح المرأة حقوقاً سياسية مساوية لحقوق الرجل ... وأرجو أن أعيش حتى أرى اليوم الذى تتبوأ فيه نساؤنا مقاعدهن تحت القبة .

وهنا فليسمح لى بسؤال :

هل ستكون لهن مقاعد خاصة باعتبارهن حزباً منفصلا قائماً بذاته ، أو أنهن سيدخلن على مبادىء أحزاب الرجال المعروفة ، ويمتزجن بها ، كل واحدة ضمن الحزب الذى يرشحها ؟...

إذا كان الأمر الأول ؛ فلا شك أن حزبهن المستقل سوف يكون فى الشؤون النسوية صاحب الكلمة التى لا تعصى ولا ترد فإذا اقترح الحزب النسائى مثلا إعفاء « البودرة » و « الروج » و « الجوارب » من كل ضريبة جمركية أو تجارية ، فإن هذا الإعفاء نافذ بدون كلام ، والرجل الذى يجرؤ على المعارضة يكون مستعداً لنكد الدنيا يهبط على أم رأسه ، لا فى البرلمان وحده ؛ بل فى بيته من زوجته أو أخته أو ابنته ...

أما إذا كان الأمر الثانى ، فإنى لا أرى فائدة كبرى تعود على المرأة منه ... وأخشى مخلصاً أن تطويهن مطامع الأحزاب الأخرى فلا ينتفعن لأنفسهن بشىء .

***

لى بعد ذلك ملاحظة شكلية يجب أن توضع موضع الاعتبار :

لقد عاب أحد الشيوخ المحترمين على النساء الموظفات حرصهن على زينتهن ... وأنا لست من رأيه ... إذ ما دمنا قد سلمنا للمرأة بحقوقها فى

الوظائف العامة ، فلا بد لنا من السماح لها باستعمال حقها الطبيعي فى « الأحمر والأبيض » ... وما أحسب أحداً من زملائها فى البرلمان يثير هذا الاعتراض يوم تتخذ مكانها فيه ... فإن الوجه النظيف والتزين اللطيف من أبلغ حجج المرأة ... وليس من الإنصاف أن نحرمها سلاحا من أسلحة بلاغتها المأثورة فى ساحة يتذرع فيها كل عضو بكل أدوات الفصاحة والإقناع ...

***

وأخيراً ، يا حمارى العزيز فإنى ألخص لك رأيى فى كلمة واحدة هى :

موافقتى التامة على وجود المرأة فى البرلمان وفى كل مكان إلى جانب الرجل ؛ لأن مجرد وجودها يحدث نشاطاً فى الهمم وتألقاً فى الأفكار ...

لقد قلت ذات مرة : « إن المرأة مثل القمر ... « أقصد بمعناه الفلكى لا الشعرى » فهى لا تشع ضوءاً من داخل نفسها ، بل تعكس الضوء الآتى إليها من شمس عقل الرجل ... هى كالقمر « كائن سلبى » ، وسطح معتم فى ذاته ، لا تسطع إلا بما ينعكس على قلبها ورأسها من تفكير الرجل وإحساسه ... فدنوها منه فى مجال العمل المنتج ، له من الفائدة ما يعادل فائدة المرأة إلى جانب المصباح ... إنها تضاعف نوره ، وتزيد إشعاعه ...

أما أن تنتظر منها أكثر من ذلك فهو انتظار للمستحيل ... لن يكون للنساء فى مجالسنا النيابية والاجتماعية أكثر مما للمرايا بجوار المصابيح فى القاعات والصالات ... ولقد بلغنا ولا شك فى الحضارة حداً يقتضى أن نزين جدراننا بالبللور !!...

حمارى وعداوة المرأة

قال لى حمارى ذات يوم :

ــ لماذا انفردت بين الأدباء باحتقار المرأة ؟...

ــ ومن قال لك إنى انفردت ؟... هنالك العقاد ...

ــ وهل يكره العقاد المرأة حقاً أو يحتقرها ؟...

ــ هذا سؤال يحسن أن تلقيه عليه ... أما أنا فأتخيل أنه سيجيبك صائحاً هذه الإجابة الوافية الشافية :

ــ « أنا أكره المرأة » !... من يقول ذلك عنى ؟... حبى للمرأة أمر مقطوع به ، ولم يكن يوماً موضع شك أو جدال ... فأنا رجل طاهر السريرة ، واضح النهج ، حياتى صريحة ... لم يسبغ عليها قط رداء الغموض ... مودتى أمنحها أمام الملأ ، وعداوتى أعلنها على رءوس الأشهاد ... فمنذا يستطيع أن يزعم أنى وقفت تجاه المرأة موقفاً ينم عن زراية أو بغضاء ؟... أين بدا ذلك منى ؟... هأنذا ألقى بقفاز التحدى ...

ومع ذلك أصغى أحياناً إلى همسات تتصاعد من قرارة نفسى أرجو أن لا يكون لها صدى يبلغ آذان النساء ، همسات تنبئنى بأن المرأة كانت فى نظرى ، وتكون شيئاً لا يستحق غير الامتهان :

زرقة عينيك لا صفاء فيها ، ولكنها فضاء(*)
حمرة خديك لا حياء فيها ، ولكنه اشتهاء
وجهك سبحان من جلاه ولوث النفس بالطلاء

قلت ذلك حقاً فى المرأة ، ولست أدرى كيف أنشدته وسطرته ونشرته دون أن أثير خصومة ذلك الجنس الخطر !... السبب فى ذلك بسيط : إنى أعامل المرأة كما ينبغى أن تعامَل : لا بالعقل الرشيد ، ولا بالمنطق السديد ، أنا الذى حذق التحليل المنطقى وبرع فى التدليل العقلى ، ووضع كل شيء تحت مصباح الطريقة الذهنية ، وأخضع كل بحث إلى الأسلوب الفكرى ، رأيت أن أشذ عن هذه القاعدة فى علاقتى بالمرأة ...

لم أخاطبها قط يوماً بغير لغتها .. لذلك فهمتنى ، ولم تثر فى وجهى ... إنى لم أصنع للمرأة تمثالا مموهاً بالقداسة الزائفة ، ولم أردها كما يريدها خيال أولئك الشعراء الذين يركبون إليها القوارب الثملة ، ويمخرون نحوها البحار البعيدة ، ويبحثون عنها فى الشواطئ المجهولة ، وهى منهم على قيد خطوة ... جالسة تنتظر ، وتكاد أقدامهم تتعثر فيها وهم لا يبصرون ... كلا ... إنى أبصرها ... وأراها دائماً كما هى ... وكما خلقها بارئها : فاكهة شهية غضة ينخر فها الدود ... فلننفض عنها دودها ، ونحن نخفى اشمئزازنا ، ولنطبق عليها بأنيابنا ، ونلتهمها بأفواهنا ، ثم نطرحها جلدة رثة ، وقشرة بالية ... هكذا أراد لها القدر ... فلماذا نريدها نحن على غير

(*) الاستشهادات الشعرية [illegible]ها من ديوان أعاصير مغرب للأستاذ عباس محمود العقاد .

ذلك :

أنتَ الملـــــوم إذا أردت لها ما لم يـردهُ قضاء بــاريها

تلك نظرتى إلى المرأة ... لم أوصد دونها بابى يوماً ... و لم أشح عنها بوجهى ... لقد فتحت باب حياتى على مصراعيه لكل امرأة تدخل بسلام آمنة !.. كل النساء على السواء : ممن أطلق عليهن اسم الفاضلات ، وممن حسبن فى غيرهن ... ومن أنصاف أولئك وهؤلاء !... لكن نوع المعاملة قلما يتغير ... قد أغير وأبدل أحياناً فى أسلوب وأردية الكلام ومقتضيات المقام ... فتلك التى يقال إنها مثقفة أحيطها بجو فكرى ينشط خيالها ، ولا يثقل على طبيعتها ... ذلك أن طبيعة الأنثى فى المرأة لها دائماً المكان الأولى ؛ فلنلزم معها الحيطة ، ولنتجنب الإملال والإثقال ... فما من امرأة تطيق حمل رفيع الأفكار أكثر من قدر بسيط معلوم ، يحسن أن تتخلله فترة مداعبات عاطفية ، وتفاهات أو محادثات سطحية .. أذكر ذات يوم أن زارتنى امرأتان من طراز أولئك المثقفات ؛ فلبثنا نتحدث ساعة فى بعض الشؤون الثقافية ، وشغلنى شاغل فانصرفت عنهما طرفة عين ، فما عدت إليهما حتى وجدتهما تتحادثان فى أنواع أصابع « الروج » وأصناف طلاء الوجه والشفاه ... آه ... لو أنهن — على الأقل — كن يطلين بالثقافة الحقيقية أزواجهن بالمقدار الذى يطلين به شفاههن !...

إنى لا أقول لهن هذا الكلام ... ولكننى أعمل أحياناً ما هو أقسى من القول : إنى لا أحجم عن إشعار المرأة وهى أمامى بأنها مخلوق تافه حقاً ... ومع ذلك ... يا للعجب العجاب !... إن المرأة تثور للكلام ولا تثور للفعال ... إنها تغضب لكلمة تسمعها ، ولا تغضب لصفعة على وجنتها !... وماذا أريد أنا أكثر من إذلالها بغير إثارتها ؟!... إنى رجل

يعرف الحب ... وقد أحببت على الطريقة التي تروق للمرأة ... أى ذلك اللون من الحب الممزوج بالتقدير والتحقير ؛ فالإهانة أو الزراية هى الملح الذى يجب أن يوضع فى الحب ليكون له المذاق الذى تسيغه المرأة :

بعض الزراية نافع فى حبهن فلا تغال

هكذا ظفرت بالمرأة ؛ لأنى عرفت سرها ... مفتاح سرها دائماً فى يدى ؛ ألوح لها به عند كل لقاء ... فإذا هى تبسم صاغرة وتفتح لى مغاليقها من تلقاء نفسها ... إن المرأة ليست مغلقة إلا لذلك الذى أضاع مفتاحها !... قد يسألنى سائل : ما هو هذا السر ؟...

فأجيب من فورى : هو الخداع ...

لا ترع من هذه الكلمة !... هى عندنا نحن الرجال نقيصة ، وهى عندهن غريزة ... منذ فجر التواريخ والمرأة تتزين : أى تخدع ... لقد عرف الطلاء على وجه المرأة قبل أن يعرف على جدران الهياكل !... وطلاء الجسم ملازم لطلاء النفس ؛ بل إن النفس هى المنبع ... فهى بنزوعها إلى الكذب والتمويه تتخذ الجسم لها مطية ... ما من امرأة صدقت فتشجعت وبرزت سافرة للرجل كى يعرف وجهها الحقيقى !...

منذ آلاف الأعوام والمرأة تتنفس من إحدى رئتيها بالهواء ، ومن الرئة الأخرى بالرياء ... بل إن الرياء والخداع هما الأكسجين والهيدروجين فى هواء كل امرأة !... ولقد اتخذ الخداع على مر الأجيال ألواناً تحاكى ألوان أثوابها ، فهو تارة برىء الغرض كل مهمته أن يبهر البصر ... وهو تارة رداء ضرورى يستر عورة ، وهو فى كل الأجيال سليقة تنطلق بلا غاية ولا هدف ... لذلك ما فكرت يوما فى لوم امرأة لأنها خدعت إنما كنت ألقاها قائلا :

خَلِّ الملام فليس يثنيها　　　حب الخداع طبيعة فيها

وكانت هي تلقاني وعلى فمي ابتسامة الفاهم شأنها ، المتوقع لكل خيانة منها ... فما تبدو منها بادرة حتى أعاجلها بقولي :

خنها ولا تخلص لها أبداً　　　تخلص إلى أغلى غواليها

نعم ... المرأة لا تذكر كلمة « الإخلاص » إلا إذا ذكرت أنت كلمة « الخيانة » . أما إذا رفعت عقيرتك لتتغنى بالإخلاص ، فإن دوى أغانيك وترانيم أناشيدك ، وإن بلغت السماء ، فإنها لا تبلغ أذنيها ... وإن هي سمعت الكلمة ، فثق أنها نسيت المعنى ... تلك هي المرأة التي تلقنت درسها الأول من الحية ، ودرسها الثاني من الشيطان .

قلت لك إني أعرف الحب كما يحلو للمرأة ، لا كما يحلو لأصحاب الخيال ... فاسمع مني النصح أيها الرجل :

إذا أحببت امرأة فاصنع ما أقول لك :

لن أقول لك اليوم بالطبع ما كان يقال قديماً :

« إذا دخلت على المرأة فلا تنس أن تخفي في تلابيبك سوطاً »

كلا ... فإن امرأة هذا العصر لا يرعبها السوط ولكني أقول لك : إذا لقيت حبيبتك فأنشدها :

حبك لا نعمة أراها　　　فيه ، ولكنه جزاء

يا جنة حسنها عقاب　　　يا خمرة عذبها عذاب

متى متى ينطوي الكتاب ؟　　　متى فراق بلا لقاء ؟!

حمارى والمحكمة

قال لى حمارى ونحن نتذاكر الماضى يوماً :

— إنك قد اعتزلت خدمة الحكومة ، ولا ريب أنك تذكر فيها مواقف لك ، لا يمكن أن تحدث لغيرك !...

فقلت وأنا شاخص ببصرى إلى الفضاء :

حقاً ... اليوم وقد أصبحت بحمد الله من أرباب المعاشات ، فلا جناح على من ذكر طرف مما كان يقع لى أحياناً أثناء خدمتى فى وظائف الحكومة ... ولأتخير لك عهد اشتغالى فى سلك القضاء ؛ فما زالت فيه حوادث يذكرنى بها من آن لآن بعض الزملاء السابقين .. ومن ذلك تلك الحادثة التى أرويها لك ، فقد وضعتنى موضع الحرج لحظة من اللحظات :

كنت فى كرسى النيابة العمومية ذات صباح متشحاً بوسامى الأحمر الأخضر ، وكان أمامى « الرول » ؛ ذلك الدفتر الطويل الذى تدون فيه أرقام القضايا وأسماء المتهمين ، والشهود ، وملخص وصف التهمة ، ومواد القانون ... إلخ .. وبين أصابعى ذلك القلم الذى يجب أن أدون به الحكم الذى ينطق به القاضى فى كل قضية ؛ ولكن الحق يقال : ما من مرة دونت فيها الأحكام كاملة فى ذلك « الرول » ، فقد كان سكرتير المحكمة « الله يستره » هو الذى يسد هذه الخانة بقلمه — تلطفاً منه وكرماً — لثقته بأنه من غير المعقول أن أكون قد تتبعت كل القضايا بيقظة وانتباه ... على

أن من المبالغة أن أزعم أنى كنت أشرد عن كل ما يجرى حولى طوال الوقت ... هنالك قضايا وتفاصيل ودقائق كنت أوجه إليها التفاتى ... لعلى كنت أعرف بالغريزة ما ينفعنى كروائى مما لا نفع لى فيه ... إنى ما كنت أطيق ثرثرة المحامين ... فالقضية التى فيها مرافعة طويلة معناها عندى « غياب ذهن » طويل ... وربما حوار قصير بين شخصيتين تافهتين — فى نظر المحكمة — يثير فى نفسى كل تأمل وتفكير . لقد سمعت فى ذلك اليوم الذى أتحدث عنه هذه المناقشة بين القاضى وخفير نظامى تعدت عليه امرأة بألفاظ جارحة :

القاضى : ماذا حصل يا خفير ؟...

الخفير : أنا واقف فى دركى جهة نقطة الملموسات « يقصد المومسات » ضربت بعينى لقيت الحرمة المتهمة خارجة من بيتها حاطة ...

القاضى : حاطة إيه ؟...

الخفير : حاطة من غير مؤاخذة أحمر وأبيض ، ومتخططة ، وفى جليها الخلاجيل ولابسة شبشب زحافى ، وواقفة بين الجدعان فى وسط الشارع ، فى حالة هزار وضحك وصهاليل بشكل مخالف للحشمة والكمال ...

القاضى : وكيف تعدت عليك المتهمة أثناء تأدية وظيفتك ؟

الخفير : قلت لها عيب يا ملموسة ... ادخلى بيتك ... فما كان منها إلا أنها زغرت لى من فوق لتحت ، وتقصعت وقالت : « اخرس يا غفير يا مصدى ... قطع لسانك ... دا انا لما انفض شبشبى الصبح ينزل منه عشرين غفير زيك » !...

فظهر الاستنكار على وجه القاضي ؛ وظهر الإعجاب على وجهي ... إن هذه المرأة فى نظره قد فاهت بأقصى ألفاظ التعدى ... وهى فى نظرى قد جاءت بأخصب صور الخيال الفنى ... فما أظن هنالك أبلغ من هذه الصورة فى تحقير خفير ... لو استطاع ذهن هذه المرأة أن يبدع صوراً أخرى فى التجميل والثناء كما فعلت فى التقبيح والهجاء ؛ لكانت شاعرة . ونظرت إليها وهى فى قفص الاتهام ؛ فإذا هى هادئة ساكنة ، ويدها على خدها ، ترمقنا بنظرات فاترة ، وعلى شفتيها ابتسامة ؛ لعلها ساخرة ... إنها معترفة ... ولماذا ينكر شاعر قصيدة هجائه ؟... لقد روحت عن نفسها بما قالت ، وكفى ... ماذا يهم الثمن بعد ذلك ؟.

ترى ماذا فى حياة هذه الساقطة ؟... لا أقصد حياتها الظاهرة التى يعرفها الخفير ورجال الضبط ، وزوارها وزبائنها ؛ إنما أقصد تلك الحياة الخفية فى قرارة نفسها ... هنالك ولا شك أشياء كثيرة رأتها وأحستها ، ولا تكلف نفسها مشقة التعبير عنها ... ولو أنها أرادت أو استطاعت لجاءت بأعاجيب ، ذلك أنها ستصف الأشياء بطريقتها هى ولغتها هى ... ويالها من طريقة ولغة ... لو استطعت أن أجلس إليها وأتلقى عنها ؟... ليس أكذب من الروائى الذى يفكر لأشخاصه بعقله هو ... ويتكلم عنهم بلغته هو ... هذه المرأة مادة قيمة لى ، ولكن ... أنسيت أنى أمثل الاتهام ؟... نحن فى الحياة قطبان لا يلتقيان ... وإن التقينا فحول القفص ؛ لأنى أبا العقاب ، وهى الجريمة ... أنا السيف وهى الذبيحة ... لا يمكن أن نلتقى للتفاهم أبداً ... لا تفاهم إلا إذا طرحت عنى وسامى الذى يكبلنى وانطلقت حراً أغترف من أعماق تلك الشخصيات كما يغترف المثال من الطين الذى يصنع به فناً ...

ومضت بى الخواطر فى هذا السبيل ، وغمرتنى فلم أدر حتى بالزمن الذى مر بى ... ولم أفطن إلى ما جرى حولى ، ولا إلى ما نظرت المحكمة من قضايا ... ولم أتنبه إلا على صوت باب حجرة المداولة يفتح فجأة ، وقد ظهر الحاجب فى حركة اهتمام سريعة وهو يحمل كرسياً وضعه إلى جوارى ، وهمس فى أذنى بقوة :

— سعادة البك مفتش عموم النيابات !...

وقبل أن أفيق إلى نفسى دخل المفتش بسرعة ، وجلس إلى جوارى ، وحيانى بصوت خافت ... ثم أراد أن يعرف رأيى فى القضية المعروضة ، فاصفر وجهى ... أى قضية ؟... والتفتُّ أنظر إلى ما يدور حولى فى الجلسة بعيون زائغة شاردة فأبصرت أحد المحامين الفطاحل يرغى ويزبد ويضرب بقبضته فى الهواء ويصيح :

— هذا كلام فارغ ... النيابة أخطأت فى تكييف وصف التهمة ... لو أن النيابة فهمت الوقائع المنسوبة إلى موكلى على حقيقتها لما قدم إليكم يا حضرة القاضى هذا المتهم مكبلا بكل هذه النصوص ...!

فمال مفتش النيابات يسألنى عن المواد المطبقة على هذا المتهم فلم أدر ماذا أقول ولا ماذا أصنع ... وأنا لا أعرف فى أى قضية يتكلمون فى الجلسة ويتناقشون ... وشاء سوء حظى أن يكون المحامى سفيه اللسان ؛ فأمعن فى الصياح قائلا :

— هل هذه نصوص تطبق فى حالة موكلى ؟... هذا تخبط من النيابة ... هذه فوضى ... هذا سمك لبن تمر هندى ...

فاهتز مفتش النيابات فى كرسيه وانتفخت أوداجه ... وهمس فى أذنى بشدة :

ـــ النيابة أهينت ... قم دافع عن كرامة النيابة !...

فقلت مداراة للمسألة :

ـــ كرامة النيابة فى الحفظ والصون ...

ـــ كيف ذلك ؟... ألا ترى النيابة متهمة بالخطأ والخلط والفوضى ؟... المحامى يقول : إن النيابة سمك لبن تمر هندى ...

فقلت له : أنا لم أسمع غير كلمة تمر هندى فقط ...

فصاح صيحة كاد يسمعها القاضى والحضور :

ـــ لا ... لا يا توفيق بك ... هذه إهانة موجهة إلى النيابة ... يجب على الجالس فى كرسيها أن ينهض لدفعها ... قم ... قم ... وسجل احتجاجك ... وابسط وجهة نظرك فى تطبيق نصوص القانون ...

فقلت فى نفسى :

لو أنى كنت أعرف فقط نوع القضية ... ولكن الموقف ساء من كل ناحية ؛ فكان الدفاع بعيداً كل البعد عن ذكر ما يُشم منه رائحة التهمة ، مكتفياً بالتهويش والتهويل والطعن فى تصرفات النيابة والبوليس ... وكلما أمعن فى ذلك هاج مفتش النيابات وماج ، وانهال على كمى يكاد يمزقه وهو يطلب منى القيام والكلام ... وأنا متشبث بمقعدى ، مصمم على القعود والسكوت ... وأصبح منظرنا ـــ لمن يفهم موقفنا ـــ يُبكى ويضحك ... وقد فطن القاضى إلى الأمر كله ، وأدرك الورطة التى أنا فيها ، وهو يعرف عاداتى جيداً ، ويحترم شرود ذهنى دائماً ... فابتسم ابتسامة فهمتها .. فتشجعت ، وقمت أقول بقوة وحماسة :

ـــ النيابة تحتج على الألفاظ التى صدرت من حضرة المحامى .

فقال القاضى :

ـــ المحكمة ترجو النيابة أن تفسح صدرها وتسمح للدفاع بكامل حريته ، وهو لم يقصد قط فى أى لحظة أن يمس كرامة النيابة العمومية من قريب أو بعيد ...

وصادق المحامى على قول المحكمة بعبارة مجاملة ، وجلست فى مقعدى أتنفس الصعداء وأقول لمفتش النيابات :

ـــ هأنذا قد رفعت لكم رأس النيابة !...

ومرت الأعوام ، وانتهى حضرة المفتش إلى أرقى المناصب القضائية فى البلاد ... فكنا كلما تقابلنا وتذاكرنا الماضى ضحك لموقفى ذاك طويلا ... ولكنه ظل برغم ذلك من المعتقدين بأنى كنت ـــ مع كل عيوبى ـــ من خيرة رجال النيابة ... عافاه الله ...

حمارى والجريمة

قال لى حمارى يوماً :

ـــ « لا شك أن الكاتب الخالق يجد نفسه أحياناً فى حاجة إلى ترك عزلته الذهنية والهبوط إلى طبقات الناس المختلفة ، يدرس أحوالهم ، ويجمع ما ينفعه مادة لفنه ... من أجل ذلك يتحتم عليه معاشرة أصناف متباينة من البشر ... ويستوى عنده الجلوس إلى العظماء والأثرياء ، أو اللصوص والأشقياء ، ولا يفرق فى الاختلاط بين الأجلاء والسفهاء ، ولا بين الفاضلات والساقطات ، الجميع فى نظره نماذج من أشخاص تلك الرواية الكبرى التى تجرى حوادثها كل يوم على مسرح المجتمع ... وهل يستطيع المؤلف الروائى أن يميز فى تقديره وعنايته ـــ وهو يصور أبطاله ـــ بين شخصية « الرفيع » وشخصية « الوضيع » ؟... كلاهما فى عرفه وعمله يحتاج إلى عين الدراسة وعين الالتفات ... لذلك يحسن بالروائى الخالق أن يصاحب ويخالط كل المخلوقات على السواء ، وأن يراقب ويدرس كل المهن والحرف والطبائع والغرائز ... فقلت له :

ـــ رأيك هذا صحيح يا حمارى العزيز ... ولقد قرأت من أخبار الروائيين فى هذا الشأن ما يثير الدهشة والعجب ... من ذلك أن كاتباً مشهوراً اتخذ صديقاً له ذلك اللص الأمريكى المشهور « آل كابونى » وهى ولا ريب صداقة مفهومة المعنى والغرض ، فقد كانت نتيجتها المحتومة

ظهور كتاب طريف عن هذه الشخصية المخيفة العجيبة ، يحوى أصدق الوصف لبيئة كان يجب أن تدرس وتصور وتبرز لمصلحة الفن ومنفعة القضاء ... ولكن يا صديقى الحمار ؛ فلنفرض جدلا أنى أردت أنا أيضاً إخراج كتاب ، لا على نسق كتابى « يوميات نائب فى الأرياف » ولكن على نسق ذلك الكتاب الأمريكى أسميه مثلا « يوميات لص فى القاهرة » أدرس فيه عصابة لصوص بكل ما يحيط بها من بيئة وظروف ... واخترت لتلك الدراسة — لا طبقة اللصوص الأرستقراطيين الذين لا يقربهم القانون ؛ فأنت فى كنف هؤلاء بمأمن ... ولكن اخترت — أولئك الذين يطاردهم البوليس فى كل مكان ... أردت أن أصور هؤلاء الخطرين الخارجين على المجتمع وقوانينه ؛ فاتصلت بهم وجلست إليهم ، وسمعت ما يدور بينهم من مؤامرات ، وعلمت أنهم مقبلون على ارتكاب جريمة سطو على بنك من البنوك فى ليلة من الليالى ... واطمأن إلىّ هؤلاء القوم ، وأمنوا جانبى ووثقوا « بشرفى » فوضعوا أمامى الخطة ... إلى هنا لا جناح على مثلى فى نظر القضاء ؛ فليس كل ذلك بعد سوى أعمال تحضيرية غير معاقب عليها ... ولكن ليلة السطو جاءت ... فترددت : هل أذهب معهم أو لا أذهب ؟... إذا أنا لم أذهب فقد خسرت دراستى ؛ فالفائدة كل الفائدة من حيث الفن الروائى هى فى حضور واقعه السطو نفسها ... كما أن قيمة الشريط السينمائى لجريدة الحرب المصورة هى فى التقاط وقائع الميدان بذاتها ... لا بد من الذهاب معهم إذن ولو تعرضت للخطر ... وقد ذهبت مدفوعاً بوسواس شيطان الفن ... وهنا المصيبة ... فقد هجم اللصوص هجمتهم على باب المصرف ... فتنبه الحارس وتعرض لهم ... فانبرى له أحد أفراد العصابة ، أعرفه بشخصه ، ورأيته رأى العين ، وقد

طعن الحارس المسكين بمدية طعنة أردته قتيلا ، وأتم اللصوص عملهم ، وانتهبوا الخزانة وانصرفوا ، وانصرفنا ... يا للكارثة !... إنها جريمة سرقة بإكراه ، اقترنت بقتل عمد ... إنه الإعدام ... إنها المشنقة لا أكثر ولا أقل ... ما مركزى فى كل هذا ... أنا فى نظر القانون شريك من غير جدال ؛ فقد لازمت العصابة فى كل أدوار الجريمة : من أعمال التحضير إلى أعمال التنفيذ ... من أول التصميم الجنائى إلى القتل واستلاب الخزانة فى أمان الله ... انصرفت إلى شأنى أفكر فى الأمر ... وانصرف زملائى بالغنيمة يقتسمون النقود ... وجاء الغد ، وإذا الصحف كلها تنشر بالحروف الطويلة العريضة : « جريمة مروعة فظيعة »!.....

وجد رجال الشرطة فى البحث ، وانهمك رجال النيابة فى التحقيق ، ووالت الصحف ملء الأعمدة بأخبار الحادثة وتصوير ظروفها ... وجاءوا بالكلب « هول » ، وأخذت البصمات ، وأجريت المعاينات ، وألقى القبض على كل من حامت حوله الشبهات ... كل ذلك كنت أطالعه فى حجرتى باسماً هادئاً . كأنى أطالع قصة بوليسية خيالية ؛ بل إنى كنت أتتبع كل ذلك ضاحكا أحياناً للفروق الكبيرة بين ما حدث بالفعل ، وما تصور المحققون أنه وقع ... إنها لذة فنية أحسستها لأنها لأول مرة وأنا أرى الواقعة الواحدة من وجهين : الوجه الحقيقى الذى لا يعرفه غيرى وأفراد العصابة ، والوجه الآخر الذى ينشر على الناس فى الصحف ... هنا ينكشف الستار أمامى على لعب المخيلة البشرية وعملها فى تكييف الحقائق ... وهنا أتمتع متعة طارح الأحجية أو « الحذورة » المالك مفتاحها ، وهو يستمع إلى تخبطات وتكهنات الآخرين ... فأمتحن ذكاء الطبيب الشرعى ، وحذق البوليس السرى ، وفطنة القائمين

بالتحريات ... ولقد ابتسمت عندما قرأت أنهم قبضوا على شقيق زوجة الحارس القتيل ، لحدوث مشاحنة بينهما فى الليلة السابقة على الجريمة ، بخصوص سلوك الزوجة المريب ... ومرت الأيام وزج فى السجن بكثير من الأبرياء رهن التحقيق ، ثم خفت صوت الحادث رويداً رويداً ، فلم تعد الصّحف تعنى به ... وأشارت صحيفة آخر الأمر بأن التحقيق كاد يغلق ، وأن القرائن كلها متجهة نحو شقيق الزوجة ، وأن التهمة قد وجهت إليه ؛ لأن صحيفة سوابقه بها جرائم مماثلة ... ولأنه متصل بالحارس فهو أقرب الناس إلى العلم بمسالك البنك وأسراره ... ولقرائن أخرى من هذا القبيل اجتمعت كلها وانصبت على رأس هـذا المتهم البرىء .

***

هنا تيقظ ضميرى الإنسانى ... وجعل يهتف بى أن من واجبى التبليغ فى الحال ، وكشف النقاب للبوليس عن حقيقة الأمر ... فنهض ضميرى الفنى معارضاً مؤكداً أن واجب الفنان هو السكوت ... واحتدم الجدل بين الضميرين ، فى الحوار الآتى :

الضمير الإنسانى : أتساءل ، كيف تسكت وقد شاهدت بعينيك رجلا لا ذنب له يسقط مضرجاً بدمائه تحت مدية مجرم وحشى ؟...

الضمير الفنى : حقاً ... لقد كان منظراً فنياً رائعاً ...

الضمير الإنسانى : إنى لم أنم منذ تلك الليلة ... ولا يمكن أن أنام حتى يقبض على الجانى الحقيقى ... وإنى أتوسل إليك أن

تريحنى وتساعدنى على تحقيق العدالة .. هلم بنا نخبر البوليس .

الضمير الفنى : أنا ... لم أر شيئاً أبلغ عنه .

الضمير الإنسانى : إنك رأيت الجريمة من أولها لآخرها .

الضمير الفنى : إنى رأيتها كفنان لا كشاهد إثبات .

الضمير الإنسانى : وما الفرق ؟...

الضمير الفنى : ألا ترى الفرق ؟...

الضمير الإنسانى : إنك رأيت على الأقل المجرم الحقيقى ، وتستطيع أن تبوح باسمه .

الضمير الفنى : لن أبوح بشىء .

الضمير الإنسانى : الخلق القويم يدعوك أن تبوح ؛ لتنقذ متهماً بريئاً ، وتقتص لذلك الحارس المسكين الذى هدر دمه فى غير ذنب إلا قيامه بواجبه الشريف .

الضمير الفنى : إنك تعلم أن الخلق القويم هذا شىء من شأنك أنت ... أما أنا فلا أعرف غير العمل الفنى القويم ... وإنى لم أدخل بين هؤلاء اللصوص باعتبارى مخبراً سرياً يبلغ عنهم ؛ ولكنى دخلت بينهم بصفتى فناناً يدرس أحوالهم ... وقد وثقوا بى وأطلعونى — لهذه الصفة — على ما لا يجسرون أن يطلعوا غريباً عليه ، فهل من حقى أن أخون هذه الثقة ؟...

الضمير الإنسانى : حقاً ... يالها من ثقة غالية ... تلك التى تنالها من أيدى القتلة والمجرمين !...

الضمير الفنى : الثقة هى الثقة ؛ سواء نلتها من شريف أو أثيم ... إن قيمة الجواهر لا تتغير بتغير الأيدى التى تمنحها ...

الضمير الإنسانى : ما أبرعك فى صياغة الكلمات ... ولكن هذا لا يمنع من أنك الآن فى نظر المجتمع والقانون مرتكب لذنب لا يغتفر ؛ إن لم تبادر فتصحح موقفك .

الضمير الفنى : موقفى الآن صحيح ولا غبار عليه ...

الضمير الإنسانى : هذا رأيك أنت وحدك ... ولكن هب أنه قبض عليك مع شركائك متلبسين فى مكان الجريمة ... أكانت تشفع لك كل هذه الفلسفة ؟.

الضمير الفنى : هذا سؤال توجهه إلى القضاة ؛ لو أنه قبض علينا ... ولكن الذى حدث حتى الآن هو أنه لم يقبض على أحد منا ... ومع ذلك فالقضاء يعرف ظروف اشتراكى فى هذا الأمر ، والبواعث التى دعت إليه ، وهى كلها شريفة .

الضمير الإنسانى : أرجو منك ألا تتكلم عن الشرف ، لقد ظهر لى أننا غير متفقين على معنى هذه الكلمة .

الضمير الفنى : تريد أن تقول : إنى لست شريفاً ؟...

الضمير الإنسانى : من الصعب أن أعدّك كذلك وأنت تنام ملء جفنيك مرتاحاً مطمئناً لا يزعجك صراخ ذلك الدم البرىء الذى ينادى بإحقاق الحق وإقرار العدل ... إنك لا تريد أن تخون السفاكين الذين استأمنوك ... وتريد أن تخون المجتمع الذى وضع فى قلمك أمانة الدفاع

عنه ... أنت أيها الكاتب الحر !... فيم عملك ورسالتك إذن إن لم تكن فى النهوض ذائداً عن حرية الأفراد ودمائهم ، مناصراً للعدالة .. معيناً للحق والقانون ؟!...

الضمّير الفنى : يالها من بلاغة ... أنت أيضاً تعرف كيف تؤثر فى النفوس بمثل هذه الكلمات ؟!...

الضمير الإنسانى : أتستطيع أن تكذّب حرفاً واحداً مما أقول لك ؟...

الضمير الفنى : أنا لا أكذب ولا أثبت ... أنا أصور وأعبر .... الشرف عندى هو فى صدق التصوير والتعبير .

الضمير الإنسانى : أهذا كل واجبك إزاء البشرية ؟...

الضمير الفنى : هذا ليس بالشيء القليل ... ولأفسر لك الأمر باللغة التى تفهمها :

« إن الكاتب الفنان يؤدى رسالته إلى البشر ويعاون فى إصلاح المجتمع بمجرد كشفه خبايا بيئاته المختلفة بريشة صادقة ، ودراسة أسرار النفس الإنسانية والغرائز البشرية ، وإبرازها للعيون والعقول ...

إن عملى يماثل عمل العالم الكيماوى وهو يدرس جراثيم الأمراض تحت مكروسكوبه ... لماذا لا تذهب إلى هذا العالم وتقول له :

« اقتل هذه الجراثيم فى الحال فهى تستحق الإبادة ؟... إنه لا شك يجيبك باسماً : ليس مهمتى أن أبيدها الآن هكذا ... إنما ينبغى لى أن أعيش

بينها ، أراقبها وأسجل ظواهرها ، فإذا عرفنا خواصها وخيرها وشرها ، أمكن العلماء فيما بعد أن يستخرجوا لها العلاج ، ومنها الترياق » .

أنا أيضاً أقول لك الآن :

دعني قليلا بين جراثيم المجتمع من أهل الشر والعهر والفجر ، أضعهم تحت « مكرسكوبي » ثم أعيش بينهم أرقبهم ، وأدون ما يبدو لي منهم .

الضمير الإنساني : لكنهم يعيثون فساداً كما تعلم ؟!...

الضمير الفني : المكلفون بمطاردة الجراثيم هم رجال الصحة ورجال البوليس ... أما رجال العلم والبحث ؛ فهم يحافظون على نماذج جراثيمهم في المعامل .

الضمير الإنساني : آه ... إذن لأعجب كيف أن شريفاً مترفعاً مثلك يستطيع أن يرى القبح والفساد ، وأن يعيش راضياً مطمئناً بين هذه المناظر والظواهر ؟!...

الضمير الفني : هنا بالضبط نبل مهمتنا ... ألا ترى ذلك العالم الذي يحقن جسمه بلقاح الجراثيم ويعرض حياته كلها للخطر من أجل الرغبة في البحث والاستكشاف خدمة لعلمه وللإنسانية فيما بعد ؟!... نحن أيضاً معشر الكتاب والفنانين ، نصنع أحياناً مثل ذلك في سبيل الفن والمجتمع والبشرية ...

الضمير الإنساني : قد يكون هذا حقاً ... ولكن برغم كل ذلك أرى واجبك كمواطن شريف أن تبلغ البوليس ...

الضمير الفنى : واجبى عدم التبليغ ...

الضمير الإنسانى : بل الواجب أن تبلغ ؛ كى لا تعطى الناس ... القدوة السيئة ...

الضمير الفنى : ليس للناس أن يقتدوا بالفنان فى كل تصرفاته ... كلا لن أبلغ ...

الضمير الإنسانى : بلغ ...

الضمير الفنى : لن أبلغ ...

واضطرب رأسى تحت ضربات تلك المعركة العنيفة ، فارتميت على فراشى أطلب النوم تخلصاً من عذاب نفسى وما يدور فيها من حرب ضروس ...

ولكنى لم أغمض جفناً طول ليلى ... ولم يفتر الدوى فى أذنى لحظة بهاتين الكلمتين الملعونتين « بلغ ... لا تبلغ ... بلغ ... لا تبلغ ... » .

حماری ومنظری

قال لی حماری وهو يتأمل جندياً شاباً ، مر بنا فی طريقه ولا ريب إلی ساحة القتال ، ولفت أنظارنا ببهاء طلعته :

ـــ انظر إلی هذا الجندی الفاتن !... ماذا عليه بربك لو أعطاك رأسه تفعل به أنت هنا الأفاعيل ، وأخذ رأسك القبيح هذا ليموت به فی الميدان الغربی ؟...

فلم أرد عليه ... فتلك مسألة طالما فكرت فيها من قبل بينی وبين نفسی ... نعم ... طالما ندبت سوء حظی ونصيبی وبكيت واشتكيت ؛ لأن السماء خلقتنی هكذا شكلا وموضوعاً ... ولكن فكرت وتأملت ، وقلت عن نفسی ما قال الفيلسوف « باسكال » عن « كليوباترا » :

« لو أن الله جعل لی أنفاً أصغر من أنفی هذا لتغير وجه حياتی كله أجمل تغيير ... ولكن الله ضن علی مثلی بهذه المنحة الصغيرة وهی لا تكلفه كثيراً ولا قليلا ... »

وكنت كلما ذهبت إلی حلاق وأبصرت إلی جانبی رجلا بديع القسمات أخاطب السماء قائلا :

لكأنك يا ربی قبل أن تخلق هؤلاء المحظوظين قد وضعت بين أيديهم صناديق مملوءة بمختلف أصناف :الأنوف والشفاه والآذان والعيون ؛ ليختاروا من بينها ما لذ لهم وطاب ... أما أنا وأمثالی فينبذ إليهم ما بقی بعد

ذلك فى قعر الصناديق من « كناسة » أيدى أصحاب الحظوة والنصيب ... قلت ذلك كثيراً ورددته طويلا ... وإذا أنا أسمع ذات ليلة صوت ملاك من الملائكة يهبط علىّ وأنا بمفردى فى حجرتى صائحاً بى :

— « فضحتنا ... السماء ضجت من تشنيعك وتشهيرك !... »

— عفواً يا سيدنا الملاك ...

— اسمع يا أستاذ ... لقد جئت إليك لأحقق كل طلباتك ؛ حتى لا تتهمنا بعد ذلك بالتحيز أو المحسوبية أو غير ذلك من الصفات غير اللائقة ... ما رأيك لو خلعنا عنك هذا الشكل الذى لا يعجبك ، وأعطيناك غيره كما تشاء وتحب ؟!...

— وكيف يحدث ذلك ؟...

— تموت ثم تولد مرة أخرى فى ثوب جديد ... وإن لك علينا لعهداً وميثاقاً أن نفتح بين يديك كل تلك الصناديق التى تتحدث عنها ؛ لتختار أنت أولا ما يحلو لك قبل كافة مواليد العالم .

— ومن يضمن لى إذا مت إن أولد من جديد ؟...

— عجباً ... أوَ تشك فى وعد أهل السماء !...

— كلا ... ولكن هل أنت تفعل هذا بإذن ...؟

— بالطبع ... وهل يحدث شىء بغير إذن المولى العظيم !...

— إن الله حقاً لغفور رحيم ... وافرحتاه ... إنه سيعطينى كل ما أريد ...

— كل ما تريد وكل ما تتخير لنفسك ...

— هذا شىء جميل ... اجلس إذن يا سيدنا الملاك ولنتحدث قليلا ... ولا بأس من أن تشير علىّ بما ينبغى أن أختار ... فأنا أخشى أن تبهر عينى

عند فتح الصناديق ، فلا أستطيع أن أميز الجيد من الردىء ... إنى أذكر سوء اختيارى دائماً لألوان « الكرافاتات » و « الجوارب » ... وحيرتى كلما فتح لى صندوق منها لانتخاب أحسنها ... وإنى لأغرق فى ترددى مرة ثانية إلى أن ينتهى بى الأمر إلى تخير أقبحها وأرذلها دون أن أدرى أو أنتبه ...

— أوَ تريد مرة أخرى أن تحملنا مسئولية اختيار أنفك وفمك !!؟... لا ... لا يا سيدى الأستاذ ... أوَ نسيت أنك منذ قليل كنت حضرتك تطعن فى ذوقنا ، وتتهمنا فى نوايانا !!؟...

— حاشا لله ... أنا لم أطعن و لم أتهم ... إنما كنت أتظلم وأستعطف ... ولقد تفضلتم فاستمعتم إلى ظلامتى ، فأكمل فضلك معى وامكث نتبادل أطراف الحديث ...

— مكثت ... تكلم ... إنى مصغ إليك أيها الأستاذ !...

— أيها الملاك ... ما رأيك فى أن أطلب أن يكون لى شكل « كلارك جيبل » ...؟

— بديع جداً ...

— أليس لك اعتراض ... فلنتفق من الآن ... والشرط نور ...

— موافق جداً ؛ — بل أكثر من ذلك — أحب أن ألفت نظرك إلى أن من حقك — بناء على اتفاقنا هذا — أن تطلب ما شئت ، لا من حيث الشكل وحده ؛ بل الأخلاق أيضاً ... ثم الثروة كذلك ...

— عجباً ... الأخلاق والثروة ؟...

— ولم لا ؟...

— إذن فأنا أطلب أن تكون لى ثروة « روكفلر » ...

ـــ معقول جداً ...

ـــ أليس كذلك ؟...

ـــ نعم ... وأخلاق من ؟!...

ـــ آه ... حقا ... دعنى أفكر قليلا ... أظن أنه لا يوجد خير من أخلاق « غاندى » ... نعم ... إنى أطلب أن تكون لى أيضا أخلاق غاندى ...

ـــ عظيم جداً ... شكل « كلارك جيبل » وأخلاق « غاندى » وثروة « روكفلر » ...

ـــ ألا تظن أن هذا كثير ؟... إنى أبالغ بلا شك ... إنها قلة ذوق منى ... إنى أستغل عطف السماء أكثر من اللازم ..

ـــ كلا يا أستاذ ... مطلقاً ... لا شيء بكثير على قدرة الله ... إن الله إذا شاء أعطى بغير حساب ...

ـــ اللهم شكراً ... أنا الذى طالما تمنى أن يلغى الحساب من الوجود ساعة تمتد يد الله نحوى بالعطاء ... ها هى ذى الساعة أقبلت ...

ـــ ألك طلبات أخرى ؟...

ـــ لا يا سيدى الملاك .. أوَ بقى شيء يطلب : شكل « كلارك جيبل » وثروة « روكفلر » وأخلاق « غاندى » ... أأريد أن أنهب الكون ؟!... يا للمعجزة ... إنى سأغدو أعجوبة ولا شك فوق هذه الأرض !... إنى سأصنع العجب العجاب ...

ـــ سوف نرى ...

ـــ وهل هناك شك فى أنى سأملك من الوسائل ما أصنع به الأعاجيب ؟...

ـــ أى نوع من الأعاجيب ؟... إننا لم نتفق بعد على اسمك وعملك ؟...

ـــ اسمى وعملى ...

ـــ بالطبع ... يجب أن يكون لك اسم وعمل فى حياتك الجديدة ...

ـــ حقاً ... هذا ما نسيت أن أفكر فيه ...

ـــ ثم يجب أن تكون لك جنسية !.. أمثل « جيبل » و « روكفلر » أمريكياً ، أم مثل « غاندى » هندياً هندوسياً ... أم ...

ـــ هندياً هندوسياً ... ما هذا الكلام أيها الملاك ... ومتى أتعلم هذه اللغة ... لا ... لا يا سيدى ... بسط كل هذه الإجراءات ، واتركنى كما أنا مصرياً ؛ وليكن اسمى « توفيق الحكيم » كما أكون الآن ...

ـــ لا بأس فى ذلك ولا مانع لدينا مطلقاً ... وعملك ؟... هل تريد أيضاً أن تبقى كاتباً كما أنت ...

ـــ طبعاً ... طبعاً ... وهل يمكن أن يكون « توفيق الحكيم » شيئاً آخر فى الحياة غير ذلك ...

ـــ آه ياسيدى الأستاذ ... سوف نرى ... سوف نرى ...

ـــ نرى ماذا ؟... إنك تخيفنى بهذه اللهجة المبطنة بالشك والريبة ...

ـــ لا تخف ... إنى ما جئت لأخيفك ... إنما أنا هنا الآن لأنيلك ما تشتهى ... ولكنك أردت أن نتجاذب أطراف الحديث ، وقد جرنا الكلام إلى ما يعنينى وإلى ما لا يعنينى ... وإنى لأرى الفضول يدفعنى إلى أن أوجه نظرك إلى أمر ... هل تسمح ؟!...

ـــ العفو يا سيدى الملاك ... تفضل ... وجّه نظرى إلى حيث شئت ...

— هل تتصور ما سوف يحدث غداً يا « توفيق الحكيم » وقد أصبح لك شكل « كلارك جيبل » وتصوف « غاندى » وثروة « روكفلر » ؟!..

— ماذا سيحدث ؟...

— تخيل ... تخيل يا سيدى الروائى ...

— تخيل أنت يا سيدى الملاك ...

— إذا سمحت لى ، فإنى أقول لك : إن الذى سيحدث هو أن شكلك الجديد الجميل سوف يجعل كل الجميلات يرتمين على أقدامك ...

— الله يسمع منك بجاه النبى !!!...

ولكنك ... حيث أن لك تصوف « غاندى » فإنك لن تلتفت إليهن ... وستقنع من الحياة كلها بتلك « العنزة » وتحلب من لبنها وتشرب ...

— وهل هذا معقول !...

— وعند ذلك تنصرف عنك الجميلات يائسات ساخطات ، متسائلات عن كنه ذلك المخلوق الغافل عن جماله ، القانع بعنزته وصومعته وخياله ...

— معهن حق ... هذا مخلوق يستحق الشنق !...

— هذا هو الجمال مع التصوف ...

— لا ... يا سيدى احذف التصوف من فضلك ...

— إذن فليكن الشكل « كلارك جيبل » مع أخلاق من ؟...

— أخلاق أنا تكفى ...

— أخلاقك كما هى الآن !؟... عظيم ... إذن فلتكن أنت بالشكل الجميل وثروة « روكفلر » ... أتدرى ماذا سيحدث ؟... ستحيط بك

جميلات الأرض حباً فى صورتك وطمعاً فى ثروتك .

ــ أهلا وسهلا !... وأنا لا أتمنى على الله ولا عليك أكثر من ذلك ...

ــ ولكن ... بما أنك تريد أن تبقى كاتباً روائياً ... فإنى أظن من الصعب عليك أن تجد وقتاً تتخلص فيه من أذرع النساء ؛ لتجلس أمام الحبر والورق ... وإذا وجدت الوقت فلن تجد الدافع الذى يحفزك إلى العمل ... أين فى تاريخ الأدب والفن ذلك المليونير الوارث الذى يحنى ظهره ليكتب أو يخلق ... إن لذة الفنان هى فى أن ينتج ويقوِّم نتاجه بعد ذلك بالذهب أو بالمجد ... هو الذى يوجد المال بفنه ... أما إذا وُجد المال قبل ذلك عن غير طريق فنه ، فإن نصف لذة الخلق الفنى تضيع ... ونصف الحافز على الإنتاج يذهب ... المليونير الذى أصبح فناناً عظيما غير موجود ... ولكن الموجود هو الفنان الذى قد يستطيع بفنه أن يكون مليونيراً ...

ــ آه يا سيدى الملاك ... إذن لا ضرورة لثروة « روكفلر » ؟!...

ــ فكر فى الأمر يا سيدى الأستاذ ... ربما كنتُ غير مصيب ... فشئون الفن تعرفها أنت أكثر منى ... إنى ــ كما تعلم ــ لست فناناً ... أنا ملاك فقط ...

ــ العفو ... العفو ... إن رأيك فى الحقيقة فيه شىء من الصواب ... إننا لا ننتج فى الفن من أجل الثروة ؛ أو على الأقل ليس من أجلها وحدها ... ومع ذلك فما ألذ طعم المال الذى يأتى ثمرة الفن ... حقا ... إنى لأحس هذا الشعور دائماً .... ما أتفه المال الذى يأتينى من غير طريق فنى ...

ــ أرأيت اللذة التى تحرم نفسك إياها بطلبك ثروة تأتيك من

السماء !...

— نعم ... نعم ... احذف ثروة « روكفلر » ...

— إذن فليكن لك فقط ما طلبت ؛ شكل « كلارك جيبل » ...

— وهذا يكفيني ، ولا أطلب غيره ...

— عظيم ... ستبقى أنت كما أنت ، ولكن في صورة جميلة ، وطبيعي أنك ستكون محبوباً من الحسان ... هذا لا مفر لك منه ، ولا حيلة لنا فيه ...

— وما الضرر يا سيدى أعزك الله ؟!...

— لا ضرر ... ولكن ...

— ولكن ماذا ... صارحني بربك وارحمني ...

— فنك ؟... أيبقى هو فنك أم يصبح فن رجل آخر .. إنك تعلم أكثر مني أن الفن يتغير بتغير طبيعة القلب الذى يخرج منه ... إنه كالماء الذى ينبثق من الينابيع ... فهو حار إذا نبع من بقعة الزلازل والبراكين ، بارد إذا صعد من أرض الأمن والاطمئنان ...

— لم أفهم بعد ...

— لعل الأصح أنك لا تريد أن تفهم ... لكن لا بأس من أن أوضح لك ، ولن آتي بكلام من عندى ... حسبي أن أسوق إليك كلمة أنت نفسك قائلها وواضعها على صدر كتاب من كتبك : « إن صاحب الحياة السعيدة لا يكتبها ... بل يحياها » ...

— تريد أن تقول إنه إذا كان لى شكل « كلارك جيبل » وحياته السعيدة فإني سأحياها ولن أكتبها ...

— لست أنا الذى قالها ؛ بل أنت الذى قلتها ونشرتها ...

— ومن أدراك أنى لم أخطئ و لم أغلط ... أنا رجل كثير السهو والغلط ... لماذا لا أجرب ، دعنى أجرب يا سيدى العزيز ... ماذا يضيرنا لو جربنا ... إن التجربة وحدها هى التى تلهمنى وتهدينى ... ولقد عزمت على أن أجرب بنفسى كل شىء ، وأن أهبط وأرتفع ، وأنهض وأقع فى أجواء الحياة والمجتمع ، فامنحنى شكل « جيبل » ولا تحرمنى هذا الطلب الوحيد عافاك الله وأبقاك ...

— لا تخدع نفسك .. أو اخدعها وأنا غير مسئول عن النتيجة ... خذها منى كلمة صادقة : إذا تغير شكلك تغير تفكيرك وتغيرت نظرتك إلى المجتمع والحياة ، وأصبحت شخصاً لا علاقة له بتوفيق الحكيم ؛ لا من بعيد ولا من قريب ...

— أحسن ... وأنا لا أريد أن تكون لى بحضرته أى علاقة ...

— هذا شىء آخر ... ولكننا اتفقنا من مبدأ الأمر على أن تحتفظ باسمك وشخصك وعملك ...

— وبعد ؟...

— وبعد فإن الله لم يترك شيئاً للمصادفة ... إنه خلقك هكذا لتنتج فناً هكذا ... فإذا تغير أنفك تغير فنك !...

— وبالاختصار ... أيها الملاك ...

— بالاختصار أيها الأستاذ ... ليلتك سعيدة ، وأحسن ظنك بحكمة ربك الذى لم يخلق شعرة من شعر رؤوسكم عبثاً ...

وهكذا انتهى الحوار بينى وبين الملاك المفضال ، وأنا كما أنا لم أنل شيئاً و لم أربح جديداً ... وتحرك الملاك ليرتفع من حجرتى عائداً إلى السماء ... فصحت به مستوقفاً :

ـــ لحظة واحدة من فضلك ... يظهر أن الحائل بينى وبين كل خير هو هذا الفن المزعوم ، أنا يا سيدى متنازل عنه ...

ـــ تتنزل عنه من أجل شكل جميل !؟...

ـــ المسألة فى نظرى تستحق المقايضة ...

ـــ أنت وما تريد ... ولكنها أنانية منك أن تضحى عملك الذى تؤدى به خدمة عامة فى سبيل صفة شخصية تنال بها متعة خاصة ...

ـــ أنانية ... أنانية ... أنا راض بهذا الوصف ... لكن غيرونى ... أنا طالب التغيير ... أنا حر فى نفسى ولا أحد شريكى .

ـــ لك شريك ... هو وطنك ... فإذا وافق أهل بلادك على أن يؤخذ من بينهم « فنان » ليستبدل به « دون جوان » فلا مانع لدينا من إجراء عملية الاستبدال ...

وهكذا عقد لى الإجراءات بدل تبسيطها ... وارتفع سريعاً قبل أن ينتظر منى جوابا ... وتركنى وحدى كما كنت أمـام ورق وحبرى وحمارى ... لم أتقدم أو أتأخر ...

حمارى وصورتى

دخل علىّ حمارى يقول متعجباً :

ــ بلغنى اليوم أن صورة لك « زيتية » أو « باستيل » لست أدرى على التحقيق ، قد بيعت بمائة جنيه ! ... فمن هو هذا المثرى المسرف المتهور الذى أقدم على دفع هذا الثمن فيك ؟!...

فقلت له هادئاً :

ــ هذا المثرى المسرف المتهور ؟... هذا ما أزيح لك عنه الستار بعد قليل ...

و لأبدأ القصة من بدايتها فأقول لك :

ــ إنى كنت جالساً ذات يوم حيث اعتدت الجلوس ، وإذا مصور أقدر مواهبه هو « صلاح طاهر » جاء يقترح علىّ رسم صورة لى كما صنع للعقاد ، وأرانى نسخة فوتوغرافية للوحة العقاد ، فقلت له :

« هذا حقاً بديع ، ولكن العقاد له من حسن سمته ما يستحق التصوير ، ومن عمق حسه ما يستوجب التعبير ، أما أنا فماذا يغريك بتصويرى » ؟...

وقصصت عليه حكاية نقلت إلىّ عن مثال خطر له أن ينحت لى تمثالا ، و لم يكن قد رآنى ، فسأل عن مكانى ، فوصفوه له ، فجاء ومر

أمامى دون أن أشعر ، ثم عاد إلى أصحابه يقول لهم فى خيبه أمل :

إنه بعد أن شاهد شكلى عدل عن صنع التمثال ... ولكن هذا المصور لم يحذ حذو زميله النحات ، وأصر على عزمه ... ونظر ملياً إلى جلستى بعصاى وقال :

« لا تتحرك ... هكذا أضعك على لوحتى كما أنت الآن ... »

وبدأ عمله بالفعل بعد أن هوّن علىّ كل مشقة ، وأعفانى من كل كلفة ، وتركنى أسبح فى ملكوتى — كما يقول — وأنسى نفسى وأنساه ...

وفرغ من الصورة ... وكان الشرط الذى بيننا قبل أن يبدأها هو أن ينصرف بها بعد إتمامها ... وقد عجب لذلك أول الأمر ... ولكنى سألته :

« ألم يتفق لك أن صورت حماراً « ولا مؤاخذة » أو حصاناً أو غراباً ؟... » .

فقال « اتفق لى كثيراً » ...

فقلت : « هل كنت تعطى هذه الصورة لأصحابها المذكورين ؟. »

فقال : « بالطبع لا » ...

فقلت : « أنا أيضاً افعل معى ذلك » ...

فوافقنى كل الموافقة ... ولما عرف فيما بعد أنى أعيش مجرداً من كل طرف أو تحف أو ذكريات ... حتى كتبى التى أنشرها لا أحتفظ بنسخة منها لنفسى عذرنى ... ثم قال :

— إنى فى الحقيقة كنت عازماً على عرض هذه الصورة للبيع فى معرضى

الذى سأقيمه قريباً ...

— للبيع ؟... ومن هو هذا المجنون الذى يشتريها ؟!...

— طبعاً لن تكون امرأة ... هذا مفهوم !...

— إلا إذا اشترتها لتبصق عليها صباح مساء ...

وانصرف المصور بالصورة .. ونسيت أمره وأمرها ... وانتهى خبرها عند هذا الحد ... وإذا الصاوى يخبرنى ذات يوم أنه رأى اللوحة معروضة فى ستوديو الفوتوغرافى « خورشيد » ، وأنه أعجب بها إعجاباً شديداً ... والصاوى صاحب ذوق فنى سليم بالفطرة والسليقة ، وإنه ليبلغ أحياناً فى حبه لاقتناء كل جميل من التحف والصور مبلغ التهور ... ففى حجرته صورة لـ « جوزفين بيكر » ليست سوى مجرد نسخة عن أصل معروف دفع فيها عشرين جنيهاً ... ولقد علمت أنه كان فى باريس يشترى ما يفتنه من التحف بالتقسيط ، إذ كان طالب علم يعوزه المال و لم يكن بعد صاحب أرض تدر عليه العسل والعنب والفول السودانى ... فلما أثنى على الصورة صدقته ... ثم عرجت بالحديث إلى مجرى آخر ... فلقد احتدم بيننا منذ يومين خلاف حول أمر غاظنى منه كل الغيظ ، وأطلق لسانى بتأنيبه أعنف التأنيب ... ذلك أنه كان قد نوى شراء وقادة أو « ولاعة » سجاير للجيب ، رآها فى « فترينة » جواهرى معروف ثمنها ٢٨ جنيهاً ؛ فاتهمته بالسفه الذى يوجب الحجر ، فلم يرعو ... وإذا به ذلك اليوم يصارحنى بأنه لم يقو على إغرائها ؛ فاشتراها ... وأخرجها من جيبه مغتبطاً وأوقد بنارها سيجاره وأنا أنظر إليه على « نار » ... فما أن رآنى على هذه الحال حتى ابتسم وقال :

— تسمى هذا سفهاً وإسرافا وجنوناً ... فما بالك لو عرفت ما هو أدهى ؟!...

— ماذا أيضاً ؟... لم يبق إلا أنك اشتريت لامرأة جوارب بمائة جنيه !...

— دعها مفاجأة ... لن أقول لك الآن ...

وتحدثنا فى أشياء أخرى ... وتشعب بنا الحديث ... وقبل انصرافنا قال :

— إنى قد أعددت لك بعد غد وليمة عشاء ...

— وما الموجب ؟...

— أليس من حقى أن أحتفل بك ؟...

— إياك أن يكون غرضك أن تقترض منى نقوداً ؟!...

فقهقه عالياً ... وافترقنا ... ومضى اليومان ، وذهبت إلى وليمة الصاوى ... فماذا وجدت ؟... وجدت مائدة منصوبة بألوان الطعام والشراب ... ولكن لم يكن هذا هو المقصود ... فقد كان بيت القصيد تلك المفاجأة التى سبق إليها التلميح : تلك صورتى معلقـة فى صدر المكان ، محاطة بإطار بديع من خشب الأرو النفيس ... وإلى جانبها مصورها صلاح طاهر يقول لى :

— هذا هو المشترى : الأستاذ الصاوى ... دفع فيها مائة جنيه ، فضلا عن الإطار الذى كلفه عشرة جنيهات ... ومنحنى فوق ذلك حق عرضها فى المعرض ؛ لمجرد العرض ...

فغمغمت كالحالم — « المشترى ؟! » ...

فقال الضاوى باسماً — « المجنون » !...

فى الحق أنى فوجئت ... وقد أسفر الموقف عن جد لا هزل فيه ... وقد تأثرت فعلا كما تأثر معى صديقنا الزيات — صاحب مجلة الرسالة — وكان حاضراً — وتركنا المزاح ، وواجهنا الأمر بعين أخرى ...

واستأنف المصور قائلا :

إن الضاوى — وهو يدفع الثمن نقداً وعدًّا دون أن يساوم أو يمارس — كان يخشى شيئاً واحداً ، هو عدم ارتياحى أنا لاحتفاظه هو بالصورة ، ومنشأ هذا القلق هو علمه بأن صورتى الزيتية التى صنعها لى « صبرى » منذ عشرة أعوام ؛ قد اشترتها الحكومة لوضعها فى متحف الفن الحديث ، فهو إذن كان يحسبنى أفضل لرسمى الجديد ذلك المصير المجيد ... وهو موافق على هذا التفضيل ، ومستعد أن ينزل عن ملكيته للوحة إذا كانت تلك إرادتى ... فماذا أقول فى كل ذلك ؟... لقد كانوا يتحدثون بهذا حولى وأنا شارد فى عالم آخر ... لقد خيل لى أنى لست فى مصر ؛ بل فى أوروبا ... فهناك نجد أمثال هذا التقدير من الزميل للزميل ... فهناك تسمع حقاً أن صورة « ويلز » تزين حجرة « برناردشو » وأن « موروا » يضع كتاباً عن زميله « فاليرى » ليبسر على قرائه فهم ما دق من آرائه ... أما فى مصر فما نعلم إلا أن فلاناً طعن فى زميله فلان... وأن هذا الكاتب شتم ذاك ... وقد اعتنقت صحافتنا هذا الأسلوب ؛ فجعلت تغرى شخصيات الفكر والسياسة بعضهم ببعض للمباريات العلنية فى أحدث ألوان السباب والإقذاع والإسفاف ، حاسبة بذلك أنها تسر قراءها ، كما كان العوام يسرهم قديماً تنافر الديوك وتناطح الخراف ... حتى فسدت

أذواق قرائنا وانحطت مشاعرنا ، وسفلت نفوسنا ، وأصبحنا نحن أهل الشرف ننظر إلى العاطفة الرفيعة — إذا ظهرت — كأنها أعجوبة الأعاجيب ، وإلى العمل النبيل — إذا فلت — كأنه من الخوارق التى نستكثرها على طبيعتنا ... هذا هو المرمى الذى حفزنى على ذكر هذا الموضوع فالناحية الخاصة منه ليست سوى وسيلة ومغزى للجانب العام ... إنه درس ومثال أرجو أن يعيد إلى قلوبنا الثقة بأن فى بلادنا أحياناً روحاً لا يقل سمواً عما فى غيرنا من البلاد العظمى ...

حمارى والنفاق

قال لى حمارى ، وقد رآنى أتهيأ للسفر ذلك الصيف إلى رأس البر : أتذهب وحدك ؟...

فخجلت منه ودعوته ؛ لأن الوفاء يأبى أن أتركه يصلى حر القاهرة وأمضى أنا بدونه إلى المصايف ... ولقد نزل مثلى ضيفاً معززاً مكرماً على « عشة » أحد الأصدقاء ، وأفرد له مكان بجوارى ... وأصبح ينعم بهواء البحر مثلنا ... ويذهب معنا كل صباح إلى خيمتنا ، التى نصبت على الشاطئ ، وينظر كما ننظر إلى أفواج المصيفين والمصيفات تغدو وتروح بألوان ثيابها الزاهية المختلفة ، كأنها معروضات الفترينات ، قد وضعت فيها محركات تسيرها أمام أعيننا فوق الرمال ... وكان يحلو لى أن أغرق صامتاً فى مقعد بحرى طويل مريح ، وكنت قد أوصيت حمارى بالسكوت ؛ فنحن هنا للراحة لا للكلام ... وقد أذعن لرجائى فلم ينبس بحرف ... إلى أن جاء ذات يوم إلى « البلاج » رجل من معارفنا ، له جسم قد ترهل ، وكرش قد برز كأنه « فنطاس » غاز ، وهو يرتدى « الشورت » مع قميص قصير الأكمام فقلت له :

— يا لك من رشيق !... يا لها من رشاقة !...

وهنا لم يتمالك الحمار ، وهمس قائلا لى :

— أحقاً تراه كذلك ؟...

فقلت بصوت مرتفع سمعه الرجل مغتبطاً :

ـــ طبعاً أراه كذلك ... ولماذا لا أراه كذلك ؟!...

فهمس الحمار لى وهو يتأمل قوام الصديق وقده من رأسه إلى قدمه :

ـــ كيف لا أرى أنا ما تراه أنت !؟...

فقلت له مغيظاً :

ـــ لأنك أنت حمار ...

فأجابنى هامساً :

ـــ ولماذا لا تقول لأنك أنت منافق ؟!...

وكان الصديق قد ابتعد ولحق بمضيفى ، وقد اطمأن إلى حسن منظره ، وسارا معاً على الشاطئ ، بعد أن يئسا من ذهابى معهما ... فأنا لا أحب المشى ... وانفردت بحمارى أصيح فيه :

ـــ أنا منافق ؟!...

ـــ مهلا ... مهلا ... أنا لم أقصد إهانتك ...

ـــ افهم أيها الحمار أن هذا ليس نفاقاً ، ولكنها مجاملة ...

ـــ مفهوم ... إنها مجاملة ... والمجاملة هى النفاق الصغير ... هى كالجحش بالنسبة إلى الحمار ... ومع ذلك فأنا لا أستهجن النفاق على الإطلاق ... إنى تأملت نفسى ذات يوم وتأملتك وقلت : ما الفرق بيننا معشر الحمير وبينكم معشر الآدميين ؟!... نحن نأكل الفول ، وأنتم تأكلون الفول ... وإذا كنا نحن نحبه ممزوجاً بالتبن أو النخالة ، وأنتم تحبونه بالزيت أو الزبدة ، فتلك مسألة مزاج ... ولا يجب أن نسميه فرقاً جوهرياً ... إنما الفرق الأساسى حقاً بيننا وبينكم : هو أنكم تعرفون « النفاق » ونحن لا نعرفه ... وقد عللت نفسى ومنيتها بحلم جميل ؛ هو أن

تتاح لى الفرصة أن أرجوك يوماً وأتوسل إليك أن تعلمنى النفاق ...

— عجباً !... من علمك هذا الأسلوب الهادئ ؟!...

— إنى لست أهزأ ... إنى أقول الجد ... تلك عقيدتى :

لو أمكننى تعلم النفاق وإدخاله فى فصيلة الحمير لا نقلبنا مخلوقات مثلكم ... إنى مؤمن كل الإيمان بهذا المبدأ ... وإنى أعمل سراً على تنفيذه منذ زمن ... فلا تقف فى وجه مطامعى وآمالى ... خذ منى كل شيء ، وأعطنى النفاق !...

— ماذا جرى لك ؟... هل جننت ؟... هل أثر فى رأسك هواء البحر النقى وطعام مضيفنا الشهى ؟!...

— رأسى بخير ... ولقد سألتك شيئاً سوف يُحدث انقلاباً فى تاريخ بنى جنسى ، ولكنك تبخل به علينا وتضن ، فلن ألح أو أثقل عليك بعد الآن فى الطلب !...

— أمرك غريب ... أبخل عليك بماذا ؟... أهو شيء عزيز نفيس أستكثره على مثلك ؟... هذه أول مرة أسمع فيها أن للنفاق قيمة يحرص عليها الإنسان !...

— أما أنا فقد سمعت أن النفاق له قيمة كبرى فى الأسواق العالمية ، وأن أجود أنواعه يوجد فى مصر ، كما يوجد فيها أجود أنواع القطن ...

— يظهر أنك استقيت معلوماتك من مصادر خبيرة ...

— لقد قيل لى : إن النفاق الطويل التيلة ...

— ماذا تقول ؟!...

— نعم ... إنه كالقطن ... ألا ترى هذا ؟! ولعل السبب فى تفوقه وتميزه بطول تيلته أنه يمتد إلى الطرفين : الفرد والمجتمع ؛ فمثلا من الجائز أن

يعتنق الفرد رأيا مخالفاً للجماعة ؛ فتنهض ضده الجماعة فيقبع فى داره صامتا ... وهذا ما يحدث فى كل بلد آخر ... أما هنا فيحدث غير ذلك ... فلقد أخبرونى أن أفراداً قاموا ينادون بأفكار حرة فاتهمهم الناس بالإلحاد ؛ فلم يكتفوا بالصمت بل قاموا فى اليوم التالى يحملون المسابح الكهرمان ويرتدون العمائم الخضر ... وآخرين عرفهم المجتمع من أهل الخمر والسكر فلم يكتفوا بالتوبة الصامتة ؛ بل راحو يتزعمون حركات الحض على الورع . ونساء يرتكبن فى السر الفجور ، وينادين فى العلن بالفضيلة ... وسياسيين قد خلق الله لكل منهم وجهاً واحداً ؛ فصنعواهم لأنفسهم وجوهاً عدة يستقبلون بها كل حكومة تقوم أو كل أزمة وزارية تطرأ ... وأسراً وعائلات توزع فيما بين أعضائها المبادئ والأحزاب ، كما يوزع الله بين عباده القسم والأرزاق ، ومرءوسين يداهنون الرؤساء على حساب الدولة ، ورؤساء يراعون الشعب على حساب المصلحة ؛ وسيدات يردن العبث واللهو ويقلن للناس إنه البر والخير ... وأهل دين يملئون الصحف ضجيجاً حول الأخلاق ، ويدقون طبلا ضد الرذيلة ، وما يقصدون فى سريرتهم غير التظاهر والإعلان ... ورجال تقوى يأمرون الناس بالعفة ، ويستثنون أنفسهم وذويهم .

هذا بعض ما يتعلق بالطرف الأول وهو الفرد ...

أما الطرف الثانى وهو المجتمع فله نفاقه أيضاً :

فقد بلغنى فى ذلك أنه ما من مجتمع فى غير مصر يستقبل المجرم الخارج من السجن بالموسيقى والمزمار كما يستقبل الحاج القادم من الحجاز !... وهذا المجتمع يشمئز من اللص والآثم ، والشرير والفاجر ، ولكن لو ابتسم الحظ لواحد من هؤلاء فنال سلطة ، أو أصاب ثروة ، فسرعان ما

يبتسم له المجتمع أيضاً ، ويستقبله استقبال الأمجاد الأبطال ، بل إن المجتمع ليعرف التاريخ المخجل لهذا المليونير ، والماضى المزرى لذلك السياسى ، فلا يمنعه ذلك من حملهما على الأعناق ...

هكذا يرائى المجتمع الفرد ، ويداهن الفرد المجتمع ... ولا يدرى أحد أيهما مصدر النفاق ... لذلك قيل : إن النفاق يصل أحدهما بالآخر ، فلا نعرف أن النفاق ممتد بينهما يربطهما بخيوطه المتينة ... وهذا سر وصفه بالتيلة الطويلة ... فما قولك فى هذا ؟... وهل تراني ألممت بالموضوع ؟...

— إنى أراك بحراً فياضاً ، وأدهش كيف تسألنى أن أعلمك النفاق وأنت واسع الاطلاع فيه على هذا النحو ؟!...

— لا موجب للدهشة ؛ فأنت تعرف أن العلم النظرى شىء ووسائل التنفيذ شىء آخر ... فكل بلد يدرس تاريخ الثورة الفرنسية ، ولكن ليس من السهل أن تحدث ثورة فرنسية فى أى بلد ؟!... وأنا كذلك درست تاريخ نفاقكم ، ولكن ليس من اليسير أن أحدث مثله فى مجتمع بنى جنسى !...

— لست أرى فى الأمر صعوبة ... إنه فى غاية البساطة ... أنا مثلا صاحبك الذى تخافه وتهابه ، ولك عنده مصالح ومآرب ... انظر إلى وجهى : ألا تراه جميل الصورة ؟...

— أبداً ...

— لا تنظر بعين رأسك ؛ انظر بعين مصلحتك !...

— لست أعرف لى سوى العين التى فى رأسى ...

— هذه العين افقأها إذا كنت تريد أن تتعلم النفاق !...

ـــ أفقأ عيني وأصير أعمى ؟!

ـــ هذا هو الشرط ...

ـــ وبماذا أرى الأشياء ؟...

ـــ بعينك الأخرى : عين مآربك ...

ـــ إذن لو أردت إدخال النفاق في مجتمع بني جنسي ، ينبغي لي أن آمر جميع الحمير أن تفقأ عيونها التي في رؤوسها ؟...

ـــ في الحال ...

ـــ وأن تحول مجتمعنا إلى مجتمع من العميان ؟!...

ـــ بالضبط ...

ـــ وهل تظن دولة الحمير تقبل ذلك ؟...

ـــ ولم لا ؟... إذا كنا نحن قد قبلناه ...

ـــ اسمح لي أن أقول لك ...

ـــ صه ... أعرف ما ستقول ، ولا داعي للإهانة !.. وهنا كان الصديقان قد أقبلا عائدين ؛ فأومأت إلى حماري بالصمت ... وغمزت له بعين رأسي وأنا أقول مشيراً إلى صاحبنا المترهل منشداً :

أهـــلا وسهـــلا بالرشاقـــة كلهـــا
بالشورت والأكمام فوق الكـــرش !...

حمارى والكفاح

قال لى حمارى وقد ذهبنا نمضى الشطر الأخير من الصيف فى الإسكندرية ، وننعم ساعة الأصيل بالسير الهوينا على الكورنيش :

ـــ الحق ... إنى مغتبط ها هنا ... أين المشى المريح فوق هذا الأسفلت الناعم من المشى فى رأس البر ، فوق الرمال التى كانت تغوص فيها حوافرى ؟!...

ـــ صدقت ...

ـــ إنى أراك لا تكره المشى هنا ...

ـــ أصبت ...

ـــ عجباً ... ما بالك ساهماً مطرقا !...

ـــ أسكت !... إنك تحرجنى مع أصدقائى ... كلما مشيت مع صديق فى الطريق ظن الناس أنه حمارى !...

ـــ وما ذنبى أنا إذا كان الناس يريدون أن يتملقوا أصدقاءك ؟...

ـــ أغلق فمك من فضلك ، ودعنى أنسى وجودك إلى جانبى لحظة !.

ـــ سبحان الله فى طبعك ... ما هذا المزاج العكر ، والهواء جميل خال من الرطوبة هذا العام ، والبحر صاف ، والغيد فى الإسكندرية حسان ... والنساء فى السراويل والبيجامات بأحمرهن وأبيضهن كأنهن جوقة « بلياتشو » فى « سيرك » متنقل !...

— صه ... لا تحدثنى عن النساء !...

— ألست أنت الذى دعاهن إلى ارتداء هذه السراويل ؟!...

— تلك فكرتك أنت أيها الحمار !...

— أيعقل أن تخطر ببالى أنا فكرة حشر مثل هذه الأجسام البضة المائعة فى هذا النوع من الثياب ؟... انظر إلى هذه المرأة البدينة وقد صرت لحمها المترهل صراً فى البنطلون ، وهو يأبى أن يتماسك ؛ فصارت كأنها طبق « ألماظية » متفكك سائل ؟...

— لا تبالغ ...

— انظر بعينك ... ما عليك إلا أن تنظر إلى هذا السرب السمين .

— أنا لا أنظر إليهن قط ...

— يا للعجب !... ما من مرة خطرت قربنا حسناء إلا ورأيت عينك تكاد تأكلها أكلا بلحمها وعظمها وثوبها !...

— كذاب !...

— أتقسم ؟...

— أقسم ... إنى لا أنظر غير نظرة خاطفة ، وهذا حقى شرعاً كما هو وارد فى كتب الفقه والدين ؛ فقد جاء فيها : « لك فى الشرع نظرة واحدة لاحتمال أن يكون القادم أسداً » ...

— وهل من المحتمل أن يقبل علينا أسد فى هذا الكورنيش ؟!.

— اخرس يا حمار ولا تجادلنى !...

— هذا ليس جواباً مقنعاً ...

— أفهم أن لكل زمان مخاوفه ، ولكل مكان مخاطره ؛ وتلك كانت المخاوف ، فى عهد العرب والبادية والصحراء ... أما فى عصرنا الحاضر فقد

تغير نوع الخطر ، وإن لم يتغير المبدأ ؛ فبدل الوحش الهاجم أصبحت السيارة المسرعة ..

ـــ لست أرى سيارة أمامنا ، ولكنى أرى دبابة ...

ـــ دبابة ؟!... أين هى ؟...

ـــ تلك المرأة المقبلة ؛ فلنخل لها الرصيف ولنهبط إلى الطريق ، إذا أردنا لأنفسنا السلامة !...

ـــ هذا أيضاً كما ترى نوع من مخاطر العصر الحديث !...

ـــ والكواعب الفاتنات ، كأنهن نسيم البحر ، أعارته يد السحر أردية من أجساد الحور الخالدات !...

ـــ ما شاء الله !... الحمار انقلب شاعراً !...

ـــ أجب ولا تراوغ ... ما تقول فى هذه الباقة المقتربة من الفتيات ، ذوات المناديل الدمقسية المختلفة الألوان فوق شعورهن ، من هو البستانى العبقرى الذى نسق هذا البهاء ؟... أهى المصادفة التى جمعت بينهن على هذا النحو ؟... أم هو التدبير السابق فيما بينهن ، والاتفاق المبيت على أن يصبحن على الناس متفتحات فى هذه الألوان الزاهيات ؟!... تكلم ... انطق !... ما هذا السكوت ؟...

ـــ هذا كذلك خطر من صنف آخر ...

ـــ بل هى متعة ... بل هى فتنة ... بل هو النعيم ...

ـــ عجباً ... ماذا جرى لك أيها الحمار ؟...

ـــ يا إلهى !... ما الذى صنعت فى عامى من جلائل الأعمال لأستحق هذا التصييف البديع !...

ـــ ما هذا القول السخيف ؟... أو كل هؤلاء « المصيفين » قاموا فى

عامهم بأعمال يستحقون من أجلها هذه الراحة الناعمة ؟...

ـــ لست أتكلم عن هؤلاء « المصيفين » ... إنما أتكلم عن نفسى بصفتى حماراً من أسرة الحمير ...

ـــ أنعم وأكرم !...

ـــ لا تهزأ بى ، ولا بجنسى ؛ بل اهزأ أولا بنفسك وبجنسك !... فنحن فصيلة قد اشتهرت بالكد والجد ، لقد عرفت ظهورنا أشق الأعمال ، ولم تأنف من حمل أخس الأحمال ... ما من ظهر فينا رفض « غبيط » السماد ، وما من واحد بيننا تذمر من كثرة العمل وطول ساعاته ، أو من رداءة العلف وقلة دسمه ... ما نحن إلا الجلد والعزم والصبر قد صُورت مخلوقاً حياً ، لنكون قدوة لأمثالكم من الكسالى المترفين ... ولكنكم لا تبصرون ولا تريدون أن تفتحوا أعينكم حتى على خيبتكم الماثلة !... ما من واحد فيكم يريد أن يعرق ليستحق لقمته ... موظفكم ينظر إلى ساعة الانصراف ولما يبدأ فى العمل ، ويهمه المرتب والترقية ولا يعنيه الإنتاج ، فإذا نقل إلى « الصعيد » هاج وماج ... وطلابكم يريدون أن يجتازوا الامتحانات بغير درس ، ولا يعنيهم العلم فى ذاته ؛ بل يطلبون شهادة تغطى فيهم الجهل ، وتفتح لهم الخزائن وتصعد بهم الدرجات ... وعمالكم يفكرون فى زيادة الأجر وإنقاص العمل ، ولا يهتمون بالإتقان ولا بمصالح « الزبون » ورؤساؤكم يعنيهم أن ينشر عنهم أنهم قاموا بكذا ونهضوا بكذا ، ولا يهمهم بعد ذلك قيام حقيقى أو نهوض ، وشبابكم أصبح مثله الأعلى يتلخص فى كلمتين : « سيارة وفتاة » ولا يعنيه كيف يحصل عليهما ؛ بل كل أمله وهدفه أن يظفر بهما من غير جهد ولا جهاد ... إن شعار الكثيرين فيكم اليوم هو :

« أن السماء يجب عليها أن تمطر ذهباً وفضة ونحن قعود » !... الحلم الذهبى للجميع الآن هو الثراء والإثراء بغير مجهود ... إن الحرب قد حققت بالفعل لبعضكم هذا الحلم ولكن ماذا أنتم صانعون فى زمن السلم ؟... بأى سلاح تواجهون التنافس العظيم على الإنتاج والصراع الشديد على الأرزاق ؟.. أبمبدأ « الجهد الأدنى والغنم الأسنى » الذى اعتنقه الكل فيكم من شبابكم إلى شيبكم ؟!...

ـــ حقاً تلك مشكلة لا أدرى لها حلا !...

ـــ حلها بسيط ...

ـــ ما هو ؟...

ـــ أن تعتنقوا مبدأ فصيلتى : « لا راحة بغير عمل ، ولا لقمة بغير عرق ، ولا ثروة بغير إنتاج » !...

ـــ نعتنق مبدأ الحمير ؟!...

ـــ ولم لا ؟...

ـــ فى الحق إن التطاحن فى الغد هائل ... وإن حرب السلام ستكون علينا أشق وأعنف من حرب الدماء ... ولقد أردنا أن نجنب أنفسنا الويلات فى كل ميدان ... وأن نهرب بجلدنا من وخزة الدبوس ولذعة « الناموس » ... ولكن ...

ـــ ولكن آن الأوان لتعرفوا معنى الصبر والجلد والعمل ...

ـــ سنعرف ، وسترغمنا الحياة غداً على أن تعرف ...

ـــ اليوم خمر وغدا أمر ... هلم بنا إلى ستانلى ، وسيدى بشر ، وجليم !...

ـــ مهلا ... ضميرى غير مستريح ... وأنت المسؤول ... ماذا قدمنا

من عمل فى عامنا لنكون جديرين بهذا اللهو والمرح ؟...

ــ قدمنا ...

ــ كم غبيطاً من السماد حمل ظهرك ؟...

ــ أنت تعرف أنى لا أحمل اليوم سماداً ؛ بل أفكاراً ...

ــ يا له من تدهور !...

ــ لا تدهور ولا تقدم ولا تأخر ... ما الأفكار سوى نوع من السماد ... وحامل الأفكار كحامل السماد ... وما أنت فى الحقيقة غير نوع من ... الحمير !...

ــ أشكرك ...

حمارى والجنة والنار

جلس حمارى إلى جانبى ذات ليلة ... وكانت الليلة مقمرة ... والسحب الرقيقة البيضاء لها هفيف يرى ولا يسمع كأنها أجنحة الملائكة ... كان كل شيء من حولنا يجعل النفس تحلم أو تغوص فى أعماق الخيال ... حتى حمارى أطبق عينيه نصف إطباق ، وبدا عليه أنه يريد هو الآخر أن يحلم ... ولم ألبث فعلا أن سمعته يهمس قائلا :

— ماذا بعد الموت ؟... الجنة والنار ؟...

— طبعاً ...

— وأنت فى أى مكان منهما ستكون ؟...

— من باب التواضع أقول لك فى النار ...

— لو كان لك خيال حقاً لتصورت الآن مصيرك ... ما قولك لو حاولت الآن اختراق حجب الغيب ، لتصف لى ما سوف تجد فى النار من المعارف والأشخاص والأشياء ...

فسكتُّ لحظة أفكر ... وقد أثار فى نفسى قول حمارى رغبة حقيقية فى تخيل ذلك ... ولم يمض قليل حتى صحت فيه قائلا :

— اسمع !.. إنى أتخيل الآن ثلاثة مناظر تجرى على هذا النحو :

المنظر الأول

(جنة الخلد بأشجارها وأطيارها وفاكهتها وكوثرها والصحفى أحمد الصاوى محمد جالس القرفصاء ، كئيباً حزيناً مفكراً مسنداً رأسه الأصلع إلى جذع شجرة دانية القطوف ...)

إحدى الحور : **(تمر بالصاوى فتصيح)** عجباً « ما قل ودل » هنا ؟!...

الصاوى : **(يرفع رأسه وينظر إليها)** أيدهشك ذلك يا آنستى ؟.. صدقت والله ... أنا نفسى مندهش ... نعم ، « ما قل ودل » هنا ، بلا « أهرام » ولا « مجلتى » ولا مطبعة ولا « كليشهات » !... حتى ولا عزبتى التى كانت على ترعة المنصورية !...

الحورية : أراك ضجراً ...

الصاوى : لقد أكلت من الفاكهة حتى تلفت أحشائى وشربت من الكوثر حتى انتفخ بطنى ، وتسلقت الأشجار ، وجريت وراء الأطيار ، أتعرفين أيتها الآنسة أن شجر المانجو هنا هو من نفس نوع المانجو الذى عنيت بزراعته فى عزبتى ؟.. لا بد أنهم جاءوا بالبذور من عزبتى آه .. إنها لذكرى حلوة ولكن ما بعد كل هذا ؟.

الحورية : **(باسمة)** أغازلت الحور ؟...

الصاوى : طبعاً ... هذا أول ما حصل ...

الحورية : اسمعى أيتها الآنسة ... « يستدرك » ... أيتها الحورية !... لا شيء يسعدنى فى هذه الجنة إلا أمر واحد : إصدار « مجلتى » هنا كالمعتاد ، نصف شهرية ... « ينهض بقوة » لقد اختمرت الفكرة فى رأسى طويلا ... إن أهل الجنة فى أشد الحاجة إلى مجلة تقدم لهم خلاصة أدب العالم وقصصه ومسرحياته ، وروائع الأدب المصرى ... كلا ... لم يعد هنا مصرى ولا فرنسى ... لا بأس ، نبحث فيما بعد عن الألفاظ التى تلفت الأنظار ، وعن وسائل الإعلان التى تجتذب المشتركين والمشتركات ... على أنى أبدأ بتوجيه النداء إلى الذين انضموا إلى أسرة مجلتى فى الدنيا ، فهم أولى بالاستمرار فى المساهمة ومن بادر منهم تمتع بالاشتراك المخفض ، مع حفظ الحق فى الهدايا ، بمثل ما كان يتمتع به فى الدنيا ...

الحورية : (باسمة) حتى يعلم المشترك أنه « مع الصاوى يكسب دائماً » !.

الصاوى : (باسماً) فى الدنيا والآخرة !...

المنظر الثانى

(الصاوى بين يدى سيدنا رضوان عليه السلام على مقربة من باب الجنة ... ...) .

رضوان : (**كالمخاطب لنفسه**) ماذا اسمع !... مجلة فى الجنة ؟!...

الصاوى : وما الضرر !... إنها لفكرة بديعة يا سيدنا رضوان !... إن هذه المجلة ستكون لسان حال المؤمنين والمؤمنات ... نعم ... خصوصا الأخيرات من الحور الجميلات ، فإنى كنت فى الدنيا أعرف كيف أكتب فأرضى النساء ... ثق أن مجلتى هنا سيكون لها رواج وانتشار ، وستطرد الملل من الصدور ... إنى قد أعددت كل شىء لإصدارها فى ثوب قشيب محلاة بالصور ذات الألوان ... إنه لا ينقصنى سوى الكتاب والأدباء الذين كانوا يمدوننى بمقالاتهم فى الدار الفانية .

رضوان : ألم ترهم هنا ؟...

الصاوى : لم أر منهم واحداً هنا ...

رضوان : قد خانك ولا ريب النظر رغم منظارك السميك ... من تريد منهم وأنا أدلك عليه ؟...

الصاوى : أريد الحاج !...

رضوان : أى حاج ؟... الجنة مكتظة بالحجاج ...

الصاوى : الحاج هيكل !...

رضوان : (يفكر قليلا) هيكل ؟... صدقت ... إنه ليس هنا ...

الصاوى : سبحان الله !... مؤلف « حياة محمد » !؟...

رضوان : لا تعترض يا هذا ولا تكفر !...

الصاوى : اللهم لا اعتراض !... (لنفسه همسا) ترى ماذا صنعت أنا من الحسنات حتى أدخلونى ههنا !...

رضوان : أتريد أن تسأل عن أحد آخر ؟...

الصاوى : أريد أن أسأل عن « العقاد » مؤلف كتاب « عبقرية محمد » ؟...

رضوان : العقاد ليس هنا ...

الصاوى : يا للعجب !... يا للعجب !...

رضوان : عمن تريد أن تسأل أيضا ؟...

الصاوى : أريد أن أسأل عن « توفيق الحكيم » فقد كان ألف فى دنياه كتاب « محمد » ...

رضوان : توفيق الحكيم !... ليس هنا كذلك هذا المخلوق ...

الصاوى : سبحان الله ... سبحان الله !...

رضوان : هات غيره !...

الصاوى : دلنى إذن على « طه حسين » فقد كان ألف كذلك فى دنياه « على هامش السيرة » ...

رضوان : طه حسين !... ليس هو أيضا هنا ...

الصاوى : اللهم عفوك ورحمتك !...

رضوان : لا تعترض يا هذا ولا تكفر !...

الصاوى : (همساً) لا اعتراض ولا كفر ... قد فهمت الآن ... ما أدخلنى أنا الجنة إلا كتاب « باريس » !...

رضوان : بم تهمس ؟...

الصاوى : يا سيدنا رضوان !... لى عندك رجاء ... أتأذن لى فى الذهاب إلى النار مدة نصف ساعة فقط ثم أعود ؟!...

رضوان : ماذا تصنع هناك ؟...

الصاوى : أقابل هؤلاء الأربعة المساكين ، وأتناول مع كل منهم « فنجان قهوة » أفتتح به الأعداد الأربعة الأولى من مجلتى فى عهدها الجديد ...

رضوان : ماذا تقول ؟... تتناول « فنجان قهوة » فى الجحيم !...

الصاوى : (فرحاً) نعم ... فنجان قهوة مع « ... » فى الجحيم !... يا له من حديث صحفى عجيب مبتكر لم يسبق له مثيل فى صحافة العالم ... نعم ... سأفتتح به الصفحة الأولى ، وأزينه برسم هزلى بريشة مسيو « سانتيز » !...

رضوان : (فى عجب) أوَ تحسب يا هذا أن فى الجحيم « قهوة » من بن !.

المنظر الثالث

(فى الجحيم ـــ الصاوى بين اللهب والدخان ، يمشى بخطى وئيدة يتصفح الوجوه ...) .

الصاوى : **(يرهف السمع)** أسمع ثرثرة !... يخيل إلىّ أنى أعرف صاحب هذا الصوت الجهورى ... فلأقترب منه ... عجبا !... هذا الدكتور طه حسين !... ترى ما سبب صخبه وضجيجه ... ؟

طه حسين : **(يصيح فيمن حوله)** ، نعم ... إنى غير راض عن الحياة هنا ... إنها فاترة راكدة لا يظهر فيها نشاط ولا إنتاج فحسب ؛ بل قد يمضى العام كله ؛ بل قد تمضى الأعوام كلها دون أن يظهر فى الأفق حدث من الأحداث . وهذا الركود مؤلم حقا إذاقارناه بذلك النشاط الغريب الخصب الذى ظهر فى حياتنا الأدبية فى الدار الفانية ... فقد كان هذا النشاط قيما حقا ، لفتنا إلى أنفسنا ، ولفت الناس إلينا ، فإذا نحن نرى من أنفسنا ما لم نكن نرى من قبل ... نشهد ابتكاراً فى الرأى ، واجتهاداً فى التفكير وإنتاجا فى الأدب ، وخصومات تثار حول هذا كله فنضيف ابتكاراً إلى ابتكار ، واجتهاداً إلى اجتهاد،وإنتاجا إلى إنتاج.لا نكاد ننظر فى صحيفة أو بجلة إلا رأيناه مظهراً لهذه الحياة الخصبة.وكان الرأى العام نفسه يشاركنا فى

هذا النشاط ؛ فكانت الجماهير ترضى حينا وتسخط أحيانا ، وتؤيد تارة وتقاوم تارة أخرى ...

(جماعة من أهل الجحيم تتفصد أجسامهم عرقاً ، ويتأوهون من عذاب النار يلتفتون نحو طه ...)

الجماعة : اتق الله يا شيخ !... ألا ترى ما نحن فيه من عذاب ... أى إنتاج وأى نشاط فى هذا البلاء ؟...

رجل من الجماعة : اتركوه ... إنه أديب !...

الجماعة : أو ليس الأديب آدمياً ؟... ألا يشسعر هذا الرجل بألم السعير وعذاب الجحيم !...

طه حسين : إنما الجحيم حقاً هو العيش بين هؤلاء الهامدين !...

(يذهب الأديب ....)

الصاوى : (**يسرع خلفه**) يا دكتور !... يا دكتور طه !.. إنه يسرع فى خطاه ولا يسمع صوتى من هرج الناس ... عجباً ! هذا رجل يشبه العقاد ؛ بل هو العقاد بعينه ... نعم هو بقوامه المعتدل المديد كالرمح الصلب .. مابالة يسير هكذا يتصفح جوانب الطرقات كأنه يبحث عن شيء ...

العقاد : (**يصيح نافد الصبر**) مكتبة يا ناس !... ألا توجد هنا مكتبة واحدة ؟. ما هذه المخلوقات التى لا تقرأ ؟ وأنا الذى جاء النار برضاه واختياره ، حاسبا أنه يجد فيها الجبابرة من الفلاسفة والمفكرين ، والقيم من الكتب والمكتبات .

الصاوى : يا أستاذ عباس !... أيها الأستاذ العقاد ...

العقاد : (**لنفسه**) إنه الجحيم ... إن هذا لهو الجحيم المقصود .. إن المكان الذى لا يوجد فيه اطلاع ولا تعرف فيه قراءة ، ولا يسمح فيه بتفكير لا بد أن يكون هو الجحيم !...

الصاوى : أيها العقاد !... ما باله لا يسمعنى ... لقد انصرف ... لقد اختفى !... آه ... لقد تعبت ... وأخشى أن تفوت نصف الساعة فيقفل دونى باب الجنة ... عجبا !... هذا رجل كهيكل ... كأنما به يبحث عن أحد بين الجموع نعم ... هو الدكتور هيكل بعينه !... ترى عم يبحث ؟...

الصاوى : (**ينادى**) يا دكتور هيكل !...

هيكل : (**لنفسه يائسا**) لست أجد هنا صديقا ولا أديبا !... أين زملاؤنا ؟... لماذا لا يتقابل هنا الآدباء ورجال الفكر والقلم !... إن عذاب النار — بالغا ما بلغ — لا يؤلم نفسى قدر ما يؤلمها سبب إدخالى هذا المكان .. لا سيما وأنا الذى ...

الصاوى : يا حاج !.. يا حاج !.. إنه لا يسمع ندائى ! ...

هيكل : (**ماضيا فى كلامه**) أنا الذى قمت بالدعوة للإسلام ولمحمد بما لم يقم به ألف أزهرى !... ومع ذلك فلنصبر صبراً جميلا ... (**يصيح بأعلى صوته**) ...
﴿ إن الله وملائكته يصلون على النبى ، يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما ﴾ !...

(جماعة من الأزهريين بقربه ساخرين صائحين): ولو!!..

هيكل : (**ملتفتاً إليهم**) : إن بعض الناس ما زالوا يرتابون فى صدقى وإخلاصى ... أولئك هم الحمقى ... أو من فى قلوبهم مرض !... فلنترك لهم المكان ...

(**يبتعد** ....)

الصاوى : (**فى أثره**) يا هيكل !... يا حاج هيكل !... لقد انطلق مسرعاً ولن أستطيع اللحاق به !... (**يلتفت إلى إنسان عن كثب فيصيح**) يا للغرابة !... هذا « توفيق الحكيم » يمر هناك بين اللهب ملوحاً بعصاه مرتديا معطفه الصوفى الأسود ، وهو ينظر يمينا وشمالا خائفا من وجود « تيار هواء » !...

توفيق الحكيم : (**يبحث حوله**) أين « موزار » ؟... لكم تقت إلى رؤية هذا الموسيقى فى الدار الآخرة !... لكن من المستحيل أن يكون هنا صاحب تلك الألحان السماوية !. لقد كان — حتى فى دنياه — على اتصال بالفردوس.نعم « موزار » الإلهى هو من أهل الجنة بلا مراء !...

الصاوى : (**يخطو نحو توفيق الحكيم صائحاً**) يا عدو المرأة !...

(**جماعة من نساء النار يسمعن صوت الصاوى فيقبلن فى هرج** ......)

النساء : (**صائحات**) أين هو عدو المرأة ؟...

الحكيم : (يلقى عليهن نظرة شاملة) ما كل هؤلاء !!... لم يكن عندى ريب فى أن تسعة أعشار أهل الجحيم من النساء !...

النساء : خسئت !... لا شيء يعزينا ويثلج صدورنا مثل إدخالك السعير !...

الحكيم : وأنا لو لم أجدكن هنا ؛ لاختلط علىّ الأمر وحسبت أنى فى الجنة !...

النساء : (يلتقطن أحجاراً ملتهبة يقذفنه بها) خذ إذن جزاءك .

الحكيم : صدّقت الآن وآمنت أنى فى الجحيم !!...

(يبتعد عنهن هارباً ......)

الصاوى : (صائحاً) يا توفيق الحكيم !... إنه لا يسمع ندائى ... ما بالهم كلهم كأنهم صم لا يسمعون ندائى !... يا عدو المرأة !... إنه فر هارباً وهن فى أثره بالحجارة !... لا أمل لى فى مخاطبة واحد من هؤلاء الأربعة :

فلأرجع من حيث أتيت قبل أن...

(يسير نحو باب الجنة ... ...)

رضوان : (يصيح) فات الوقت !... وانقضى نصف الساعة ، وأغلق دونك باب الجنة أيها الكافر بنعمة ربه !... لقد سعيت إلى النار بقدميك شوقا إلى أهلها ، فالبث فيهم واجرع معهم ما شئت من « فناجين القهوة » !...

جماعة من أهل النار : (يتساءلون) يا للعجب !... من هذا الإنسان الذى

أدخل الجنة فتركها وجاء بقدميه إلى النار ؟!...

رجل : (**من الجماعة**) لا بد أنه صحفى !!...

الصاوى : (**صائحاً متضرعا**) يا سيدنا رضوان !... عفوك ورحمتك !... لقد شغلنى عن الوقت حرصى على مقابلة الكتاب وجمع المقالات !... ولكن رحماك !... افتح لى الباب هذه المرة ، فإنى قد تبت إلى الله وإليك ... ولك علىّ عهد وميثاق ألا يذكر لسانى كلمة مجلة فى الجنة بعد اليوم ... فإنى سأعيش كبقية عباد الله الصالحين ، آكل الأثمار وأسامر الأطيار وأغازل الحور !...

فبراير ١٩٤٥

فهرست الكتاب

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

رقم الإيداع : ١٩٢٤ / ٨٨
الترقيم الدولى : ٥ ــ ٠٣٥٥ ــ ١١ ــ ٩٧٧